جامعة الأزهـــر
كلية الدراسات الإسلامية والعربية
للبنات بالإسكندرية

دراســــات في علم الكلام

إعــداد
الدكتورة/ منى إبراهيم أبو شادى

١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة ﴾

الآية (٥) من سورة البينة

صدق الله العظيم



بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم :

الحمد لله الواحد الأحد . الفرد الصمد . الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد . والصلاة والسلام على سيد أنبيائه وخاتم رسله سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله وأصحابه وأتباعه الموحّدين إلى أن يقوم الناس لرب العالمين .

وبعد ،،

فإن العقائد الإيمانية تجمعها جميعا إجابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عندما أجاب على سؤال جبريل - عليه السلام - ما الإيمان ؟ فقال : - عليه الصلاة والسلام - : " أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم والآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " .[1]

وصدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيما أجاب به على جبريل - عليه السلام - إذ أن كل ما ذكره هو أركان العقيدة وأساس الإيمان فإذا ما استقرت هذه الأمور فى القلوب وتمكنت من النفوس استقرت ملكة الإيمان فى النفس وامتنعت النفس عن مخالفة أوامر الله - سبحانه - أو اقتراف نواهيه المتمثلة فى عبادته - سبحانه وتعالى - التى لم يخلق الجن والإنس إلا لها مصداقا لقوله - عز وجل - : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ﴾ .[2]

ولقد جاء علم التوحيد ليتكفل بالدفاع عن هذه العقائد الإيمانية بالأدلة

---

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم ١/٣٧ كتاب الإيمان

(٢) الآية (٥٦) من سورة الذاريات

العقلية رادا على هؤلاء المبتدعة المنحرفين عن الجادة حتى يتحقق قوله - جل وعلا - : ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ﴾ .(١)

ويتحقق أيضا وعد الله - سبحانه وتعالى - للمؤمنين الموحدين والذى جاء على لسان رسوله الأمين - صلى الله عليه وسلم - : " من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار " .(٢) لأن من شهد أن لا إله إلا الله تحصل له ملكة راسخة فى النفس يترتب عليها علم ضرورى وهو التوحيد الممثل فى العقائد الإيمانية التى تحصل بها السعادة فى الدنيا والنجاة فى الآخرة ، لأنه بهذه الملكة تتحقق الطاعة والانقياد ويحيا مطيعا لربه ، عابدا إياه فى كل شئون حياته متمثلا طاعته فى كل ما يأخذ وما يدع .

مع ما تقدم مما يبين أهمية علم الكلام ، فإنه قد وجد من الباحثين فى العصر الحديث - أى فى نهاية النصف الثانى من القرن العشرين على وجه التحديد - من يقلل من أهميته . ويرى أنه لم يعد يفى بمتطلبات الإنسان المعاصر ، وأنه فشل فى أداء مهمته ، كما أنه كان سببا فى فشل الأمة وجعلها أحزابا وشيعا . ومن ثم رفض هذا العلم وامتد رفضه إلى كل ما يتصل به من أسمائه وتعريفه وموضوعه ومرتبته وأهم من ذلك كله أنكر فائدته وثمرته إلى غير ذلك من الأمور ولم يترك شيئا يتعلق به إلا ونقده ، وليته وقف عند هذا الحد بل هدمه كى يصل فى نهاية الأمر إلى وضع بديل له .

---

(١) جزء الآية (١٥٣) من سورة الأنعام .

(٢) صحيح مسلم ٥٥/١ كتاب الإيمان .

هذا ولقد قسمت هذا الكتاب إلى سبعة مباحث :

المبحث الأول : مبادئ علم الكلام ، وقد اشتمل على أسماء هذا العلم ومعناه فى اللغة والإصطلاح ، ثم موضوع العلم وصلته بالعلوم الأخرى والثمرة أو الغاية منه بالإضافة إلى حكم الاشتغال به .

المبحث الثانى : نشأةعلم الكلام وتطوره والعوامل التى أثرت فى ذلك .

المبحث الثالث : مشكلة الصفات .

المبحث الرابع : أدلة إثبات وجود الله تعالى .

المبحث الخامس : صفات السلب .

المبحث السادس : اختلاف الآراء حول مخالفته تعالى للحوادث .

المبحث السابع : صفات المعانى .

والله أسأل أن يعصمنى من الزلل فى القول والعمل ، وأن يجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم.

منى أبو شادى

المبحث الأول

مبادئ علم الكلام

المبحث الأول

مبادئ علم الكلام

أسماء هذا العلم :

جرت عادة سلفنا من العلماء عند الحديث عن أى علم أن يقدموا له بالمبادئ العشرة * لكى يكون الطالب على بصيرة من أمره ، ومنها التعريف باسم العلم أو أسمائه المتعددة التى اشتهر بها ، وذلك نظرا للعناية التى أولاها العلماء له ترغيبا فى دراسته ، وحثا على استيعابه ، هذا بالإضافة إلى حده وتعريفه ، وبيان موضوعه الذى يدور حوله البحث ، والغاية من دراسته ، إلى غير ذلك من الأمور .

وقبل الحديث عن المقدمات أو المبادئ الخاصة بالعلم يحسن بنا أن نذكر فى هذا المقام أن ثمة فرقا بين الإسلام والفكر الإسلامى .

فالإسلام هو : دين الله – عز وجل – المنزل على خاتم أنبيائه ورسله سيدنا محمد – صلى الله عليه وسلم – ومصدر الإسلام هو الكتاب والسنة النبوية المطهرة .

أما الفكر الإسلامى فهو العمل العقلى للمسلمين فى فهم ما ورد بالكتاب والسنة النبوية المطهرة ، وما يترتب على ذلك من اجتهادات فى فهم النص واستنباط الحكم ، ومن ثم فقد نتج عن الاجتهادات فى فهم النص ما يسمى لدى العلماء بـ " المصادر التبعية " ويقصد بها الإجماع والقياس والاستحسان وغير ذلك

---

* أورد البيجورى فى كتابه تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص١٤ هذا النظم :

إن مبادئ كل فن عشرة   الحد والموضوع ثم الثمرة
وفضله ونسبه والواضع   والاسم الاستمداد حكم الشارع
مسائل والبعض بالبعض اكتفى   ومن درى الجميع حاز الشرفا

من مصادر للفقه الإسلامى ، وهى مصادر قامت على الاجتهاد فى فهم النص الموحى به من قبل الله تعالى كتابا أو سنة .

من هذا يتبين لنا أن ما جاء به النص المعصوم سواء كان كتابا أو سنة يعتبر من ثوابت الدين التى لا يحل الاختلاف عليها ، ومن ثم فهى لا تدخل فى نطاق ما يسمى بـ " الفكر الإسلامى " ولا " الثقافة الإسلامية " وبالتالى لا يحل فيها الاجتهاد .

من هنا يتضح أن الخلاف حول علماء الكلام فى أصول الدين إنما نشأ فى مسائل جاءت أكثرها متشابهات ، وكذلك الخلاف بين الفقهاء فى قضايا العمليات جاءت حول مسائل ليس فيها نص من كتاب أو سنة .

ويتحصل من ذلك كله أن علم الكلام يدور فى إطار قضايا لا تصادم - فى جملتها - النصوص الصريحة أو الصحيحة من الكتاب والسنة . ومن هنا جاز حولها الاختلاف .

هذا ومن الفكر الإسلامى علم الكلام الذى يختص بقضايا الإيمان . ولقد مر هذا العلم فى تطوره بمرحلتين :

الأولى : اتسمت بنظام موحد من الاعتقاد مأخوذ من تعاليم القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة . وقد سار على هذا النهج صحابة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومن أتى بعدهم وهم التابعون وأطلق على هذه الطائفة اسم السلف .

الثانية : تمثلت فى ظهور البدع المختلفة القائمة على الجدل بغرض إشعال الخصومة والفرقة بين المسلمين . وقد كان للمتكلمين دور بارز فى الدفاع عن الدين لمواجهة أصحاب النزعات المنحرفة

هذا ، وقد أطلق على علم الكلام أسماء كثيرة نشير هنا إلى أهمها فمن ذلك :

١ - علم التوحيد والصفات .

٢ - علم أصول الدين .

٣ - علم الكلام .

٤ - علم الفقه الأكبر .

٥ - علم النظر والاستدلال .

٦ - علم العقيدة .

ولا شك فى أن مسمى هذه الأسماء واحد عند كل العلماء ، إلا أن لكل وجهة نظر فى إيثار أحد هذه الأسماء على غيرها .

١ - علم التوحيد والصفات :

فالذين أطلقوا هذه التسمية على هذا العلم لاحظوا أن مبحث " الوحدانية " هو أشهر وأجل مباحث هذا العلم ، ولما كان الأمر كذلك فقد جعلوا عنوانه علما على العلم كله تسمية للعلم بأشهر مباحثه باعتبار أنه يبحث فى الحجج التى تثبت وحدانية الله - تعالى - ثم ما يجب لله وما يجوز وما يستحيل فى حقه - جل شأنه - .[1]

فهو - إذن - سمى " علم التوحيد " نسبة إلى بعض موضوعاته ، من باب تسمية الكل بأشرف ما فيه من أجزاء . والمشتغلون بهذا العلم يسمون تارة بالمتكلمين وتارة بعلماء التوحيد .

(١) انظر : رسالة التوحيد ص٨ .

وقد أضيفت الصفات إلى التوحيد فى التسمية ، لأنه يبحث فيما يجب وما يستحيل وما يجوز فى حق الله - تعالى - من صفات .

٢ - علم أصول الدين :

سمى بذلك ؛ لأن مباحثه تدور حول العقائد وهى أصل لغيرها من الأحكام الشرعية فمعرفة الله وصفاته وما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حقه - تعالى - ، ومعرفة الرسل - عليهم السلام - وما يجب وما يجوز وما يستحيل فى حقهم ، ومعرفة اليوم الآخر وما يتصل به من ثواب وعقاب كل هذه أصول وأساس لهذا الدين .

ومن هنا علا قدره وشرف فضله على علمى الأصول والفقه ، لأن العقيدة أصل . والأحكام الشرعية التى هى موضوع أصول الفقه والفقه فرع .

٣ - علم الكلام :

لقد اختلفت الآراء وتباينت حول علة تسمية علم الكلام بهذا الاسم . وإليك ما قيل بهذا الصدد :

أ - سمى بذلك تسمية للكل باسم الجزء . حيث إن مسألة كلام الله - تعالى - وهل هو حادث أو قديم ؟ قد أثير حولها جدل ونزاع كبير بين الفرق الكلامية . ولايزال يذكر لنا التاريخ ما أثاره المعتزلة حول هذه الصفة وكم تسببت هذه المسألة فى محنة كثير من العلماء بسبب اختلاف وجهات النظر حولها .

ب - أنه سمى بذلك نظرا ؛ لأن المتقدمين كانوا يبدأون كلامهم عند تناول مباحثه بقولهم : الكلام فى الوحدانية ، الكلام فى الصفات ، الكلام فى الرؤية وهكذا

فى بقية مباحثه ومسائله . فمرد التسمية يرجع إلى المباحث الأساسية التى كانوا يعنونون لها بالكلام فى كذا .

جـ - أن هذا العلم يورث القدرة على الكلام والتفوق فى عرض الأدلة والبراهين الشرعية فى الأمور العقدية مع الآخرين .

وفى هذا الإطار جمع صاحب المواقف هذه الأقوال فقال : " إنما سمى كلاما إما لأنه بإزاء المنطق للفلاسفة ، أو لأن أبوابه عنونت أولا بالكلام فى كذا ، أو لأن مسألة الكلام أشهر أجزائه حتى كثر فيه التناحر والسفك فغلب عليه ، أو لأنه يورث قدرة على الكلام فى الشرعيات ومع الخصم " .(١)

د - أن علم الكلام مبنى على الأدلة العقلية المؤيدة فى كثير من الأحيان بالأدلة النقلية التى هى أشد الأدلة تأثيرا فى القلب وتغلغلا فيه ، فسمى بالكلام المشتق من الكَلْم وهو الجرح .(٢)

هـ - أنه سمى بعلم الكلام تنويها بذكره وتقديرا له وحثا على تعليمه مبكرا مع تعلم الإنسان الكلام أى أنه العلم الذى ينبغى أن يلقن للطفل مع تلقينه الكلام لحاجة الإنسان إليه فى حفظ أصول دينه وصونه ، أو لأنه لقوة أدلته وبيان حجته صار كأنه وحده الكلام وما عداه ليس بكلام - كأنك تقول لمخاطبك قوى الحجة واضح البيان كلامك هذا هو الكلام وكأن ما عداه ليس بكلام .(٣)

و - سمى بذلك باعتبار ما يتحقق به ، وذلك لأن مسائله إنما تتحقق بالمباحثة وإدارة الكلام من الجانبين بخلاف غيره من العلوم فإنه يتحقق بالتأمل ومطالعة

---

(١) الإيجى ص٨ وما بعدها .
(٢) انظر : توضح العقائد النسفية ١/٧ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .
(٣) انظر : العقيدة الإسلامية للدكتور عبد السلام عبده ص ٤٦ .

الكتب ، ولأنه أكثر من غيره خلافا ونزاعا فهو مفتقر إلى الكلام أكثر من غيره للرد على المخالفين .[1]

ويذكر الدكتور مصطفى عبد الرازق السبب فى تعليل إطلاق هذا الاسم (علم الكلام) على هذا العلم الذى نحن بصدده فيقول : " ويبدو لى أن البحث فى أمور العقائد كان يسمى كلاما قبل تدوين هذا العلم ، وكان يسمى أهل هذا البحث متكلمين . فلما دونت الدواوين وألفت الكتب فى هذه المسائل ، أطلق على هذا العلم المدون ما كان لقبا لهذه الأبحاث قبل تدوينها علما على المتعرضين لها " .[2]

ز – ولقد أضاف ابن خلدون تفسيرا آخر لتسمية علم الكلام بهذا الاسم نظرا « لما فيه من المناظرة على البدع وهى كلام صرف وليست براجعة إلى عمل »[3]

٤ – علم الفقه الأكبر :

سمى بذلك ؛ لأنه يبحث فى المسائل الأصولية أى الإلهيات والنبوات والسمعيات وهذا فى مقابل العلم الباحث فى الأحكام الشرعية الفرعية المسمى بالفقه .

قال الإمام أبو حنيفة – رضى الله عنه – : " الفقه فى الدين أفضل من الفقه فى العلم ؛ لأن الفقه فى الدين أصل والفقه فى العلم فرع ، وفضل الأصل على الفرع معلوم قال الله – تعالى – : ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ [4] . ولا شك أن العبد أولا يلزمه الإسلام لقوله – تعالى – : ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا

---

(١) انظر : توضيح العقائد النسفية ١/٧ .
(٢) تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٦٥ .
(٣) المقدمة ص ٤٢٩ .
(٤) جزء الآية [١٩] من سورة آل عمران .

ليعبدون ﴾[1] أى ليوحّدوا ثم العلم يبنى على الدين ، فصار الدين هو التوحيد ، والعلم هو الديانة يعنى الشرائع وهو بعد التوحيد . ثم الدين عقد على الصواب والديانة سيرة على الصواب " .[2]

٥ – علم النظر والاستدلال

سمى بذلك ؛ لأنه يعتمد على النظر العقلى فى أمر العقائد .[3]

٦ – علم العقيدة :

سمى هذا العلم بهذا الاسم باعتبار الثمرة والغاية المرجوة من دراسته وهى انعقاد القلب انعقادا جازما لا يقبل الانفكاك بناء على وضوح البراهين القطعية على موضوع الاعتقاد .

وقد أشار إلى ذلك صاحب المقاصد حيث قال : " تحلية الإيمان بالإيقان " [4] فى حق كل من لديه استعداد لذلك .

تعليق على هذه الأسماء :

سبق أن أشرت إلى أن جميع هذه الأسماء تدور فى فلك مسمى واحد عند جميع أصحاب هذه الاطلاقات . وإن كان لى أن أختار أحدها أو أن أوثر أحدها على الآخر فإننى أرى أن أدق اسم يمكن أن يطلق على هذا الفن أو هذا العلم هو " علم أصول الدين " وذلك لشموله وعمومه إذ أنه والحالة هذه يكون شاملا لكل المباحث التى يتناولها هذا العلم والتى هى أصل لغيرها من الأحكام الشرعية . ومن ثم علا قدره على علمى الفقه والأصول كما سبق أن أشرت .

---

(١) الآية [٥٦] من سورة الذاريات .
(٢) الفقه الأكبر المنسوب إلى أبى حنيفة نقلا عن : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٦٨ .
(٣) انظر : كشاف اصطلاحات الفنون ٢٢/١ .
(٤) التفتازانى ١٧٥/١ .

المعنى اللغوى لعلم التوحيد :

كلمة التوحيد مصدر للفعل الرباعى وحّد بتشديد الحاء المفتوحة يقال : وحّد يوحّد توحيدا كعلّم يعلم تعليما وكرّم يكرم تكريما وهكذا ومعناها جعل الشئ واحدا . يقال : وحّدوا صفوفكم أى اجعلوها كالصفّ الواحد . كما يقال : وحّدوا كلمتكم أى اجعلوها واحدة وصدق الله العظيم إذ يقول :

﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله ﴾ .[1]

وبناء على هذا يكون التوحيد هو : الإيمان بالله وحده لا شريك له .[2]

ومما تجب الإشارة إليه أن هناك فرقا بين كلمتى الواحد التى وصف الله – تعالى – بها ذاته فى قوله – عز وجل – : ﴿ يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شىء لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾ .[3]

وكلمة الأحد التى وصفَ الله – تعالى – بها ذاته فى قوله – عز وجل – : ﴿ قل هو الله أحد ﴾ .[4]

إذ إن كلمة " الواحد " أول عدد الحساب أى الأرقام الحسابية تقول : جاءنى واحد من الناس أو اثنان أو ثلاثة منهم وهكذا . أما كلمة " الأحد " فالمقصود بها نفى ما يذكر مع الواحد من العدد ومن ثم تقول : " ما جاءنى

---

(١) جزء الآية [٦٤] من سورة آل عمران .
(٢) لسان العرب لابن منظور ٤٧٨١/٦ .
(٣) الآية [١٦] من سورة غافر .
(٤) الآية [١] من سورة الإخلاص .

أحـد " ولا تقـول " جاءنى أحد " فالواحد منفرد بذاته فى عدم النظير والمثيل والأحد منفرد بمعناه ولا يمكن أن يُجْمع بين هذين الوصفين " الواحد الأحد " إلا لله – سبحانه وتعالى – .

فإذا قيل : " الله الواحد " يكون المعنى : الفرد الذى لم يزل وحده ولم يكن معه آخر .

وإذا قيل " الله أحد " يكون المعنى أنه لا يوصف شئ بالأحدية غيره .(١)

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٦/٤٧٨٢ .

المعنى الاصطلاحى لعلم الكلام :

لقد عرف الباحثون علم الكلام بتعريفات شتى اختلفت تبعا لاختلاف وجهة نظرهم حول هذا العلم .

وسوف نورد بعضا مما ذكر من هذه التعريفات التى تعبر عن مختلف الاتجاهات فى تعريف هذا العلم .

التعريف الأول :

قال الغزالى وهو بصدد تعريف علم الكلام : " إنى ابتدأت بعلم الكلام ، فحصلته وعقلته ، وطالعت كتب المحققين منهم ، وصنفت فيه ما أردت أن أصنف ، فصادفته علما وافيا بمقصوده ، غير واف بمقصودى ، وإنما مقصوده " حفظ عقيدة أهل السنة ، وحراستها عن تشويش أهل البدعة " .(١)

فالغرض من علم الكلام هو حراسة العقيدة الصحيحة وهى عقيدة أهل السنة .

التعريف الثانى :

عرف ابن خلدون علم الكلام بتعريف لا يختلف كثيرا عن تعريف الغزالى السابق ذكره فقد عرفه بأنه : " علم يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المنحرفين فى الاعتقادات عن مذهب السلف وأهل السنة " .(٢)

---

(١) المنقذ من الضلال ص ٩٦ .
(٢) المقدمة ص ٤٢٣ .

التعريف الثالث :

يرى القاضى عضد الدين الإيجى أن علم الكلام هو : " علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه ، والمراد بالعقائد ما يقصد به نفس الاعتقاد دون العمل ، وبالدينية المنسوبة إلى دين محمد - صلى الله عليه وسلم - فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام ".(١)

وهذا التعريف الذى ذكره الإيجى لا يختلف كثيرا عن سابقيه .

التعريف الرابع :

عرف سعد الدين التفتازانى علم الكلام بأنه : " العلم بالعقائد الدينية عن الأدلة اليقينية ... ويتميز عن الإلهى بكون البحث فيه على قانون الإسلام ، أى ما علم قطعا من الدين ، كصدور الكثرة عن الواحد ، ونزول الملك من السماء ، وكون العالم مخلوقا بالعدم والفناء إلى غير ذلك مما تجزم به الملة دون الفلسفة ".(٢)

التعريف الخامس :

لمحمد عبده حيث عرفه بقوله : " التوحيد علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجوز أن يوصف به ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل لإثبات رسالتهم وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب إليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم ".(٣)

يلاحظ هنا أن محمداً عبده آثر تعريف علم الكلام بعلم التوحيد حتى أنه سمى كتابه بـ " رسالة التوحيد " .

---

(١) المواقف ص٧ .
(٢) المقاصد ١/١٦٣ ، ١٧٦ .
(٣) رسالة التوحيد ص٨ .

التعريف السادس :

ما صرح به إبراهيم البيجوري بقوله هو : " علم يقتدر به على إثبات العقائد الدينية مكتسب من أدلتها اليقينية " .[1]

التعريف السابع :

ما ذكره التهانوي حيث قال : " وهو (أى علم الكلام) علم يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية على الغير بإيراد الحجج ودفع الشبه ... وفي اختيار إثبات العقائد على تحصيلها إشعار بأن ثمرة الكلام إثباتها على الغير ، وبأن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليعتد بها وإن كانت مما يستقل العقل فيه " .[2]

يوضح التهانوي من خلال هذا النص أن العقائد تؤخذ من الشرع وإن كانت مما يستقل العقل به وهذا هو ما يميز علم الكلام عن الفلسفة .

التعريف الثامن :

لقد عرف طاش كبرى زادة علم الكلام بتعريف لا يختلف عن تعريف التهانوي له حيث قال : " علم يقتدر معه على إثبات الحقائق الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه عنها ... ويشترط في الكلام أن يكون القصد فيه تأييد الشرع بالعقل ، وأن تكون العقيدة مما ورد في الكتاب والسنة ، ولو فات أحد هذين الشرطين لا يسمى كلاما أصلا .[3]

التعريف التاسع :

ما ورد عن بعض الباحثين أن التوحيد يطلق بإطلاقين :

(1) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص19 .
(2) كشاف اصطلاحات الفنون 1/22 .
(3) مفتاح السعادة 2/150 .

أولا : المعنى الشرعى الذى جاء به الإسلام وقرره القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته أعنى إفراد المعبود بالعبادة * مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .

ثانيا : بالمعنى الاصطلاحى المدون : وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه . أو هو العلم الباحث فيما يجب لله وما يستحيل وما يجوز والسمعيات .(١)

التعريف العاشر :

لأبى نصر الفارابى حيث عرفه بقوله : " وصناعة الكلام ملكة يقتدر بها

---

* لقد كثر الحديث لدى علماء الكلام عن التوحيد الاعتقادى مع إغفال الحديث عن التوحيد العملى . وهذا قد يترتب عليه شيوع فكرة خاطئة عند الناس مؤداها أن يكتفى فى التوحيد اعتقاد أن الله واحد ، وإن لم يوحدوا توحيدا عمليا ، ولا شك فى أن هذا أسهم فى تدهور أحوال المسلمين سلوكيا وجعلهم غرباء فى الإسلام يرتدون زيه ولا يعرفون منه إلا شكله ورسمه فأصبحوا أعاجم أمام تعليماته وما جاء به .

ولبيان بطلان هذه الفكرة الخاطئة يجب أن نلفت النظر إلى أن مشركى العرب كانوا موحدين توحيدا اعتقاديا واكتفوا بهذا الاعتقاد دون ممارسته عمليا وسلوكيا وتعبديا ، ومع هذا لم ينقذهم توحيدهم من عذاب الله فى الدنيا ولا فى الآخرة .

وقد عرض القرآن الكريم لمثل هذه الأمور فى آيات كثيرة بين فيها أن العرب يعتقدون فى وجود الإله ولكنهم يحبذون الوساطة فى القربى إليه ، دون سعى إلى التوحيد الخالص فى الاعتقاد والسلوك .

قال – تعالى – : ﴿ ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله ﴾ جزء الآية (٨٧) من سورة الزخرف وقوله – عز وجل – : ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم ﴾ الآية (٩) من سورة الزخرف .

وقد أشار القرآن الكريم إلى أن عبادتهم لغير الله كانت دعاء كغثاء السيل لا فائدة فيه .

قال – جل شأنه – : ﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين ﴾ الآية (١٩٤) من سورة الأعراف .

وقول – عز من قائل – : ﴿ يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ﴾ الآية (٧٣) من سورة الحج .

من كل هذا نخلص إلى أن الإيمان قول واعتقاد وعمل فإذا لم يتم بهذه الأركان لم يكمل التوحيد ولا يتم الاعتقاد الصحيح .

(١) انظر : توضيح العقائد النسفية ٨/١ .

الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل " .(1)

تعليق :

من خلال التعريفات المتعددة لعلم الكلام لدى العلماء نجد أنها جميعها تدور حول محورين اثنين لا ثالث لهما هما :

١ – أن مهمة علم الكلام توضيح العقائد الدينية والدفاع عنها * .

٢ – قصر مهمة علم الكلام على الناحية الدفاعية ** عن العقائد الدينية باستخدام العقل سواء أكان ذلك فى مواجهة المبتدعة الضالين أعداء الدين الذين يتربصون به الدوائر أم فى مواجهة شبهات ووساوس المترددين .

يقول الدكتور عبد الهادى أبو ريدة فى هذا الإطار : " ونلاحظ أن هذه التعريفات – أى تعريفات علم الكلام – تبين طبيعة العلم وأنه علم عقلى ، ووظيفته إيجابية من ناحية إثبات العقائد بأدلة العقل ، وهى وظيفة نقدية أيضا ؛ لأنها تتحدى الاعتقادات الباطلة سواء فى داخل الفكر الإسلامى أو فى خارجه عند الفلاسفة والعلماء ، الذين لا يؤمنون بوجود الله ، وكذلك عند أهل المذاهب الدينية الأخرى .(2)

وإذا ما نظرنا إلى هذه التعريفات – تعريفات علم الكلام – نظرة فاحصة

---

(١) إحصاء العلوم ص ١٠٧ وما بعدها تحقيق د/ عثمان أمين .
* كتعريف الإيجى والتفتازانى والبيجورى والتهانوى وطاش كبرى زادة .
** كتعرف ابن خلدون .
(٢) خطة مقترحة لتجديد علم الكلام ص١٨ بحث مقدم للندوة السنوية للجمعية الفلسفية المصرية المنعقدة بالقاهرة عام ١٩٩١م تحت عنوان " نحو علم كلام جديد " .

متناهية نجد أن تعريف الغزالى وابن خلدون غائيان أى من قبيل تعريف الشئ بالغاية والهدف منه . بينما نجد أن تعريف الإيجى متفق مع ما ذهب إليه ابن خلدون فى أن العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع حتى يعتد بها . كل ما هناك أن ابن خلدون يجعل علم الكلام أداة لعقائد السلف وأهل السنة . أما تعريف الإيجى فإنه يخرج من هذا الإطار الضيق ويتوسع حيث يجعل علم الكلام أداة دفاع لكل معتقد عن عقيدته فدفاع المبتدع عن عقيدته بالبراهين العقلية يعتبر كلاما أيضا عنده لقوله - أى الإيجى - : " فإن الخصم وإن خطأناه لا نخرجه من علماء الكلام " .

أما سعد الدين التفتازانى فإن تعريفه يخالف تعريف الإيجى حيث خص علم الكلام بالكلام القائم على قانون الإسلام أى ما علم من الدين قطعا حتى يتميز عن العلم الإلهى عند الفلاسفة .

وأخيرا فإننى أرى من وجهة نظرى الخاصة أن تعريف محمد عبده يكاد يكون منطبقا تمام الانطباق على المعرف وهو " علم التوحيد " أو " علم الكلام " لأنه يوضح هدف العلم وغايته وموضوعه فى نفس الوقت ، كما أنه عام لكل المناهج التى استخدمت فى هذا الصدد حيث لم يقصر قانون البحث فيه على مذهب بعينه .

ويمكن أيضا اختيار تعريف ابن خلدون لعلم الكلام باعتبار أنه يمثل المرحلة الأولى من نشأة هذا العلم قبل اختلاطه بالفلسفة ، كما أنه يعبر عن رأى الأغلبية ممن يشتغلون بهذا العلم . فهو فى نظره علم يدافع عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ضد المبتدعة المنحرفين . ولا شك فى أن هذا هدف ليس بعده هدف .

وجملة القول أن المتكلمين يتفقون على أن علم الكلام يعتمد على النظر العقلى فى أمر العقائد الدينية ويختلفون فى أنه :

١ – يثبت العقائد الدينية بالبراهين العقلية كما يدافع عنها .

٢ – يدفع الشبه عن العقائد الإيمانية الثابتة بالكتاب والسنة .

ومنشأ الخلاف : أن العقائد الإيمانية ثابتة بالشرع ، وإنما يفهمها العقل عن الشرع . ويلتمس بعد ذلك البراهين النظرية ، أو هي ثابتة بالعقل على معنى أن النصوص الدينية قررت العقائد الدينية بأدلتها العقلية .(١)

(١) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور مصطفى عبد الرازق ص ٢٦٢ وما بعدها .

موضوعه :

لاشك فى أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها هذا التمايز يعطى العلم ما هو جدير من العناية والاهتمام وقد كان علم الكلام من هذا النوع .

يقول الشريف الجرجانى : " موضوع كل علم ما يبحث فيه عن عوارضه الذاتية كبدن الإنسان لعلم الطب فإنه يبحث فيه عن أحواله من حيث الصحة والمرض ، وكالكلمات لعلم النحو فإنه يبحث فيه عن أحوالها من حيث الإعراب والبناء .(١)

وعلى هذا فعلم الكلام هو العلم الذى يبحث فى أصول العقيدة الإيمانية مؤيدا لها ودافعا الشبه عنها بالحجة والبرهان كما تبين من قبل عند تعريف هذا العلم .

كما قال علماء الكلام بأنه العلم الذى يبحث فيه عن دقيق الكلام وجليله * .

والعلماء إزاء تحديد موضوع هذا العلم لهم اتجاهان :

الأول : اتجاه يقرر موضوعه من خلال أصول الدين فيرى أنه :

ذات الله – تعالى – من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، والرسل كذلك من حيث ما يجب لهم وما يستحيل وما يجوز فى حقهم – عليهم السلام – ، والسمعيات كالمعاد والحشر والحساب ... الخ .

---

(١) التعريفات باب الميم ص٢٣٦ .

* جليل الكلام : أى الموضوعات الأساسية والذاتية لهذا العلم ويرجع فيه إلى كتاب الله – تعالى – وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم – .
دقيق الكلام : يقصد به المقدمات العقلية التى توقف الباحث على إثبات العقائد والتدليل عليها .
انظر : المواقف للإيجى ٥٦/١ .

وموضوع العلم عند أصحاب هذا الاتجاه لا يخرج عما ورد فى الحديث الشريف عن موضوع الإيمان فى الحديث الجامع حيث قال : " الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره " .(١)

الثانى : اتجاه يقرر أصحابه أن موضوع علم الكلام أوسع وأشمل من أن يحصر فى الموضوعات السابقة ، وذلك لأن هناك الكثير من المباحث قد تبدو غير وثيقة الصلة بدراسة علم الكلام . ولكن التحقيق أثبت أنها لازمة وضرورية فى دراسة هذا العلم مثل دراسة أحوال الممكنات التى يتوصل بها إلى ضرورة الإيمان بوجوب واجب الوجود .. الخ .

وفى هذا نعرض ما قاله صاحب المواقف فى بيان موضوع هذا العلم حيث قال هو : " المعلوم من حيث إنه يتعلق به إثبات العقائد الدينية تعلقا قريبا أو بعيدا " ثم يبين العلة فى ذلك فيقول إن : " مسائل هذا العلم إما عقائد دينية كإثبات القدم والوحدة للصانع ، وإثبات الحدوث وصحة الإعادة للأجسام ، وإما قضايا تتوقف عليها تلك العقائد ، كتركب الأجسام من الجواهر الفردة ، وجواز الخلاء ، وكانتفاء الحال وعدم تمايز المعدومات المحتاج إليهما فى اعتقاد كون صفاته – تعالى – متعددة موجودة فى ذاته " .(٢)

تعليق :

إذا أردنا أن نقارن بين الاتجاهين لنعرف أيهما أولى بالقبول والاعتبار وجدنا أن الاتجاه الأول يكفى موضوعا لطلاب العقيدة من الطريق القريب المباشر حيث إنهم يقفون أمام موضوعاتها وجها لوجه .

---

(١) الحديث بتمامه فى صحيح مسلم ٣٧/١ كتاب الإيمان .
(٢) المواقف ٤٠/١ ، وكشاف اصطلاحات الفنون ٢٢/١ .

أما الاتجاه الثانى : فهو لازم لمن يريد الدراسة الدقيقة المتعمقة . نظرا لأن موضوع هذا العلم لدى أصحاب هذا الاتجاه قد تضخم وأصبح شاملا لأشياء كثيرة ؛ لأن المعلوم الذى يتوقف على دراسته ومعرفته إثبات العقائد ، لاشك فى أن موضوعه سيكون متسعا وشاملا ؛ لأن دراسة طبائع الممكنات لمعرفة أصولها وخصائص كل منها للوصول إلى القوة المؤثرة فيها هو من لوازم دراسة علم الكلام ، وكان المعارف كلها وسائل إذا توفر القصد والنية عند طلب الحق للوصول إلى غاية محددة هى تمكين العقيدة فى القلب بناء على وضوح الأدلة الموجودة فى النفس والكون .[1]

وأرى أن الاتجاه الثانى أولى بالقبول فى عصرنا الحديث بعد ازدهار العلم والمكتشفات الجديدة التى تدعم وتقوى قضية الإيمان كل ذلك بناء على حسن النية وشرف المقصد والبعد عن الهوى والتعصب . ومن أمثلة الكتب الحديثة على سبيل المثال لا الحصر والتى تتسم بطابع استخدام المنجزات العلمية فى تدعيم قضية الإيمان كتاب " الإسلام يتحدى "[2] و" الله يتجلى فى عصر العلم "[3] و" قوانين الله وليست قوانين الطبيعة "[4] و" القرآن وإعجازه العلمى "[5] حيث إن الدفاع عن العقيدة ضد المنكرين ، وتثبيت جذور الإيمان فى قلوب المؤمنين يحتاج إلى الاستعانة بكثير من الأبحاث التجريبية والنظرية فى إيضاح الحقائق .

---

(١) انظر : العقيدة الإسلامية أصولها وتأويلاتها للدكتور محمد نصار ٢٧/١ .
(٢) ألفه العالم الهندى المسلم وحيد الدين خان وترجمه للعربية ظفر الإسلام خان .
(٣) ألفه نخبة من العلماء الأمريكان وترجمه للعربية د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان وراجعه وعلق عليه د/ محمد جمال الدين الفندى .
(٤) ألفه د/ محمود سراج الدين عليفى .
(٥) ألفه محمد إسماعيل إبراهيم .

ولعل هذا هو ما أراده صاحب المواقف فى كلامه السابق وهو ما عبر عنه بالتعلق البعيد كتركب الأجسام ... الخ . لكن هذا الكلام لا يعنى إغفال الاتجاه الأول الذى يتحدث عن ذات الله - تعالى - من حيث الوجوب والاستحالة والجواز ، وكذلك الرسل - عليهم السلام - ، ثم التصديق بالسمعيات .

من هنا نجد أن موضوع علم الكلام هو البحث حول القضايا الإيمانية فى العقيدة الإسلامية . بين ذلك الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى قوله الجامع عن عبادة بن الصامت عن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - أنه قال : « من قال أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن أمته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه ، وأن الجنة حق ، وأن النار حق أدخله الله من أى أبواب الجنة الثمانية شاء » .(١)

هذا الحديث يتضمن الأصول الثلاثة للعقيدة الإسلامية التى أوجب الله على المسلم معرفتها ، والإيمان بها لتكتب له النجاة فى الآخرة وهى :

الأصل الأول : معرفة الله - تعالى - وصفاته ، والإيمان بهما ويطلق على جملة المباحث المتعلقة به اسم (الإلهيات) .

الأصل الثانى : معرفة الواسطة بين الله - تعالى - وعباده ، وهى الإيمان برسل الله وملائكته وكتبه وما جاء به من تشريعات وتكاليف ويطلق على جملة المباحث المتعلقة به اسم (النبوات) .

الأصل الثالث : معرفة البعث والحساب والجزاء والإيمان بها ويطلق على المباحث المتعلقة بها اسم (السمعيات) .(٢)

---

(١) صحيح مسلم ٥٧/١ كتاب الإيمان وفى رواية أخرى " أدخله الله الجنة على ما كان من عمل " .

(٢) انظر : العقيدة والأخلاق وأثرهما فى حياة الفرد والمجتمع للدكتور محمد بيصار ص١٠٩ .

علاقة علم الكلام بغيره من العلوم :

لاشك أن العلوم تتمايز بتمايز موضوعاتها ، وكما تقدم فإن موضوع علم الكلام هو : ذات الله من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز ، والنبوات والسمعيات . ومن هنا كان لموضوع العلم أو الفن أهمية كبرى في الدلالة على علاقته بغيره من العلوم .

ولما كان كل من علمي الفقه وأصول الفقه له صلة بعلم الكلام من حيث اتفاق هذه العلوم الثلاثة على استثمار الأدلة في استنباط الأحكام الشرعية كانت العلاقة بينهما قوية ووثيقة إلا أن كل علم منها له موضوعاته ومباحثه التي تجعله مميزا عن الآخر . إذ تلك هي طبيعة موضوعات العلوم ، لأنها تتمايز بموضوعاتها كما سبق أن أشرت .

فموضوع علم الفقه هو : الحكم على أعمال المكلفين من حيث الوجوب والحرمة والندب والإباحة .[1]

أما علم أصول الفقه فهو استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة السمعية التفصيلية .[2]

فعلم الفقه يقول مثلا الصلاة واجبة والدليل على وجوبها قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ﴾[3] لكن لا يعرفنا كيف استنبط هذا الحكم وهو الوجوب ؟

---

(١) انظر : أصول الفقه الإسلامي للدكتور أحمد فراج ص٩٧ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) جزء الآية (٧٨) من سورة الحج .

أما علم أصول الفقه فإنه يقول لنا إن الصلاة واجبة ؛ لأن الله - عز وجل - قال لنا : ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ والحكم صدر على سبيل الأمر والأمر للوجوب .

فعلم الفقه بين الحكم فقط ، أما علم أصول الفقه فإنه بين لنا كيفية استنباط هذا الحكم من دليله السمعى التفصيلى وهو قوله - تعالى - : ﴿ فأقيموا الصلاة ﴾ وذلك من خلال قياس منطقى اقترانى تكون مقدمته الأولى الدليل السمعى التفصيلى ، ومقدمته الثانية القاعدة الأصولية ، وتكون النتيجة هى الحكم المطلوب . وإليك مثالا يوضح ذلك :

أقيموا الصلاة أمر	مقدمة أولى
وكل أمر للوجوب	مقدمة ثانية
∴ الصلاة واجبة	حكم شرعى

ولاشك فى أن بيان الأحكام العملية وبيان كيفية استنباطها يختلف تمام الاختلاف عن الحديث عن عقيدة الإيمان بالله ورسله وكتبه واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب الذى هو موضوع علم الكلام . ولذلك سمى الإمام أبو حنيفة الكلام بأنه الفقه الأكبر فى مقابل علم الأحكام الشرعية العملية التى تسمى بعلم الفقه الأصغر .(1)

يقول أبو حيان التوحيدى مبينا الفرق بين علم الكلام والفقه : " وأما الفقه فإنه دائر بين الحلال والحرام ، وبين اعتبار العلل والأحكام وبين الفرض والنافلة ، وبين المحظور والمباح ، وبين الواجب والمستحب وبين المحثوث عليه والمنزه عنه ...

---

(1) انظر : العقيدة فى ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبده ص49 وما بعدها .

وأما علم الكلام فإنه باب من الاعتبار فى أصول الدين يدور النظر فيه على محض العقل فى التحسين والتقبيح والاحالة والتصحيح والإيجاب والتجويز والاقتدار والتعديل والتجوير والتوحيد والتكفير . والاعتبار فيه ينقسم بين دقيق يتفرد العقل به ، وبين جليل يفزع إلى كتاب الله – تعالى – فيه . ثم التفاوت فى ذلك بين المتحلين به على مقاديرهم فى البحث والتنقيب والفكر والتعبير ، والجدل والمناظرة والبيان والمفاضلة . والظفر بينهم بالحق سجال ولهم عليه مكر ومجال ، وبابه مجاور لباب الفقه والكلام فيهما مشترك . وإن كان بينهما انفصال وتباين ، فإن الشركة بينهما واقعة والأدلة فيهما متضارعة . ألا ترى أن الباحث عن العالم فى قدمه وحدوثه وامتداده وانقراضه يشاور العقل ويخدمه ويستفهمه ويستضئ به ، كذلك الناظر فى العبد الجانى هل هو مشابه للمال فيرد إليه ، أو مشابه للحر فيحمل عليه ، فهو يخدم العقل ويستضئ به " .(1)

وهذا النص عليه تحفظ فيما يتصل بقوله عن علم الكلام " ينبنى على محض العقل " فإن علم الكلام لايقوم على محض العقل ، وإلا كان فلسفة محضة لا صلة لها بالإسلام ، وإنما ينبنى علم الكلام على النقل والعقل على خلاف بين الفرق فى مدى اعتمادها على العقل وفى تقديم العقل على النص أو العكس .

وعلى هذا فإن علم الكلام يفترق عن الفلسفة فى أنها تعتمد على محض العقل ، وليس علم الكلام كذلك كما بينا ... كذلك فإنه يتضح من كلامنا الفارق بين علم الكلام وكل من الفقه وأصوله .

---

(1) ثمرات العلوم ص ١٩١ وما بعدها نقلا عن : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص ٢٥٨ وما بعدها .

ثمرة علم الكلام والغاية منه :

يقول إبراهيم البيجورى إن ثمرة هذا العلم تكمن فى " معرفة الله بالبراهين القطعية ، والفوز بالسعادة الأبدية ".(1)

وهذه العبارة مع إيجازها تحمل معانى عديدة حيث إن معرفة الله – تعالى – بالبراهين القطعية التى تفيد اليقين لابد لمن يريد الوصول إليها من أن يبذل جهودا عن طريق التأمل والتفكر والتدبر والاعتبار فى النفس والكون .

وهذه المعرفة أوسع من أن تحصر فى إثبات وجود الله – تعالى – ، بل تشمل أيضا معرفة الواجبات والممكنات والمستحيلات فى حقه ليس هذا فقط بل فى حق من اصطفاهم لتبليغ رسالته .

وفى نفس الوقت تؤدى هذه المعرفة فى حق الله – تعالى – إلى الإيقان والإيمان باليوم الآخر وما فيه ، وبالكتب التى أنزلها على رسله إلى آخر هذه الموضوعات .

وإذا كان البيجورى قد تحدث عن ثمرة هذا العلم بصورة مجملة فقد فصلها الإيجى وذكر أنها :

١ – الترقى من حضيض التقليد إلى ذروة الإيقان ، ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾(2) خص العلماء الموقنين بالذكر مع اندراجهم فى المؤمنين ، رفعا لمنزلتهم كأنه قال وخصوصا الأعلام منكم .

٢ – إرشاد المسترشدين بإيضاح الحجة ، وإلزام المعاندين بإقامة الحجة .

٣ – حفظ قواعد الدين من أن تزلزلها شبه المبطلين .

(1) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص٢٠ .
(2) جزء الآية (١١) من سورة المجادلة .

٤ – أن يبنى عليه العلوم الشرعية ، فإنه أساسها وإليه يؤول أخذها واقتباسها .

٥ – صحة النية والاعتقاد . إذ بها يرجى قبول العمل وغاية ذلك كله الفوز بسعادة الدارين .(١)

وما ذكره الإيجى فى حديثه عن فائدة علم الكلام يفيد فى عدة نواح :

١ – فائدة ترجع إلى الدارس لهذا العلم ، حيث إنه ينقل عقيدة الإنسان من دائرة التقليد المحض إلى أعلى درجات اليقين .

٢ – فائدة تعود إلى غير الدارس فإن كان مسترشدا ، فإنه يعينه على إيضاح الطريق والدليل والسبيل . وإن كان معاندا ألزمه بالحجة والبرهان .

٣ – فائدة ترجع إلى قواعد الدين عن طريق تثبيت هذه القواعد بدرء الشبهات والأباطيل .

ولقد تحدث ابن خلدون عن فائدة علم الكلام فقال : " فائدته – أى علم الكلام – فى آحاد الناس وطلبة العلم فائدة معتبرة ، إذ لا يحسن بحامل السنة الجهل بالحجج النظرية على عقائدها " .(٢)

ولعلم الكلام أهداف عظمى أهمها التصدى أمام دعاوى الضالين وأصحاب البدع والمبطلين .

ولقد انفرد صاحب المقاصد من بين المتكلمين بذكر فائدة دنيوية لهذا العلم إذ قال : " ومنفعته فى الدنيا انتظام أمر المعاش بالمحافظة على العدل والمعاملة التى

(١) المواقف ص ٨ ، وكشاف اصطلاحات الفنون للتهانوى ٢٢/١ وما بعدها ، المقدمة لابن خلدون ص٤٣٢ .
(٢) المقدمة ص ٤٣١ .

يحتاج إليها فى بقاء النوع على وجه لا يؤدى إلى الفساد ، وفى الآخرة النجاة من العذاب المرتب على الكفر وسوء الاعتقاد " .(١)

والمدقق فى هذا النص يرى أن الفائدة الدنيوية هنا معللة بأن الإنسان متى تيقن من أصول دينه بنى عليها سلوكه ليس فقط مع الله - عز وجل - بل ومع غيره وعندئذ تستقر الحياة ويزول الفساد والاضطراب . وبذلك يتضح جليا ما لهذا العلم من أثر نافع سواء أكان فى الدنيا أم فى الآخرة .

ولاشك فى أن ما ذهب إليه " التفتازانى " صحيح ؛ لأن الواقع الذى يعيشه الإنسان فى هذا العصر يؤيد صحته ، إذ أن القلق النفسى الذى يساوره والاضطراب العقلى الذى يحياه مرجعهما فقدان الإيمان بالله رب العالمين ، حيث إن الحضارة التى يتعم بثمارها لم تستطع أن تثبت فؤاده ، بل أنها كانت سببا فيما صار إليه ؛ لأنها لم تعالج أو تهتم إلا بالجانب المادى فقط ، وأغفلت جانبا كبيرا له قدر كبير من الأهمية وهو الجانب الروحى الذى يتميز به الإنسان عن بقية الكائنات الحية .

يذكر الدكتور محمد إقبال فى هذا الإطار : أن إنسان العصر - وبخاصة فى البلاد الغربية - على الرغم مما له من فلسفات نقدية ، وتخصص علمى يجد نفسه فى ورطة ، فمذهبه الطبيعى قد جعل له سلطانا على قوى الطبيعة لم يسبق له مثيل ، لكنه قد سلبه إيمانه فى مصيره هو .

إن نشاطه المادى والعقلى جعله يكف عن توجيه روحه إلى الحياة الروحانية الكاملة التى تتغلغل فى أعماق النفس ، فهو فى حلبة الفكر فى صراع صريح مع

---

(١) التفتازانى ١/١٧٥ .

نفسه ، وهو فى مضمار الحياة السياسية والاقتصادية فى كفاح صريح مع غيره . ويجد نفسه - أيضا - غير قادر على كبح أثرته الجارفة ، وحبه للمال حبا طاغيا يقتل كل ما فيه من نضال سام شيئا فشيئا ، ولا يعود عليه منه إلا تعب الحياة ، وقد استغرق فى الواقع الظاهر للعيان ، فأصبح مقطوع الصلة بأعماق وجوده وأخف الأضرار التى أعقبت فلسفته المادية . ذلك الشلل الذى اعترى نشاطه والذى أدركه أحد زعماء الاتجاه المادى - هكسلى - وأعلن سخطه عليه .(١)

ولاشك فى أن الإنسان فى هذا العصر فى حاجة إلى الاهتمام بالجانب الروحى فيه وعلم العقيدة له دور كبير فى هذا باستخدام الأساليب الحديثة المناسبة التى تواكب العصر . وعلى الأفراد والمؤسسات أن تتضافر جهودها حتى يؤتى علم العقيدة ثماره المرجوة .

(١) تجديد التفكير الدينى فى الإسلام ص٢١٤ وما بعدها .

حكم الاشتغال بعلم الكلام :

لقد تباينت وجهة نظر العلماء إزاء الاشتغال بعلم الكلام فالبعض يحرمه والبعض يراه فرض كفاية ، والبعض الآخر يرى أنه فرض عين بشرط وجود شبهة يترتب حلها عليه .

يقول البياض : " وقد صرح بفرضيته على الكفاية إمام الحرمين فى النهاية والحليمى والبيهقى والغزالى والرافعى واليافعى والنووى وابن عساكر فى العزيز والروضة والمحرر والإرشاد والتبيين . وصرح به الطيبى فى " شرح المشكاة " والمحلى فى شرح " جمع الجوامع " . وقال الإمام ابن حجر الهيتمى فى شرح المشكاة : إنه آكد فروض الكفايات بل هو فرض عين إذا وقعت شبهة توقف حلها عليه ... " .(١)

يرى بعض الباحثين أن حكم تعلم علم أصول الدين هو الوجوب العينى على كل مكلف ذكرا كان أو أنثى .(٢)

ويبدو أن المراد بالوجوب العينى هنا ما لا يستغنى عنه من أمور الدين الأصلية إجمالا فى حق العامى وتفصيلا فى حق المسترشد .

ولذا رأينا أن الغزالى يفصل القول فى هذا الإطار فيقول : " إن الأدلة التى نحررها فى هذا العلم تجرى مجرى الأدوية التى يعالج بها مرضى القلوب والطبيب

---

(١) إشارات المرام ص٣٥ .
(٢) انظر : تحفة المريد ص ٢٠ وما بعدها .
لقد فصل أحمد المحلاوى القول فى حكم تعلم علم أصول الدين حيث رأى أنه فرض على كل مكلف من ذكر أو أنثى ولو بالأدلة الإجمالية ، أما بالأدلة التفصيلية ففرض كفاية .
انظر : قواعد التأييد فى عقائد التوحيد ص٧ .

المستعمل لها إن لم يكن حاذقا ثاقب العقل رصين الرأى كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه "[1] وذلك بناء على اختلاف الناس فى استعدادهم ومداركهم فى التعليم حيث قسمهم إلى أربع فرق :

– الفرقة الأولى : آمنت بالله وصدقت رسوله واعتقدت الحق ، وأضمرته واشتغلت إما بعبادة وإما بصناعة ، فهؤلاء ينبغى أن يتركوا وما هم عليه ، ولا تحرك عقائدهم بالاستحثاث على تعلم هذا العلم ، فإن صاحب الشرع – صلوات الله عليه – لم يطالب العرب فى مخاطبته إياهم بأكثر من التصديق ، ولم يفرق بين أن يكون ذلك بإيمان واعتقاد تقليدى أو بيقين برهانى وهذا مما علم ضرورة من مجارى أحواله فى تزكيته إيمان من سبق من أجلاف العرب إلى تصديقه ببحث وبرهان بل بمجرد قرينة ومخيلة سبقت إلى قلوبهم فقادتها إلى الإذعان للحق والانقياد للصدق فهؤلاء مؤمنون حقا فلا ينبغى أن تشوش عليهم عقائدهم ، فإنه إذا تليت عليهم هذه البراهين وما عليها من الإشكالات وحلها لم يؤمن أن تعلق بأفهامهم مشكلة من المشكلات وتستولى عليها ولا تمحى عنها بما يذكر من طريق الحل ولهذا لم ينقل عن الصحابة الخوض فى هذا الفرع لا بمباحثة ولا بتدريس ولا تصنيف بل كان شغلهم بالعبادة والدعوة إليها وحمل الخلق على مراشدهم ومصالحهم فى أحوالهم وأعمالهم ومعاشهم فقط .

– الفرقة الثانية : طائفة مالت عن اعتقاد الحق فمن استمسك بالباطل من هؤلاء ولم يذعن لمقتضى الدليل فلا ينفعه إلا السيف والسوط وهؤلاء مثل الكفرة والمبتدعة .

الفرقة الثالثة : طائفة اعتقدوا الحق تقليدا وسماعا ، ولكن خصوا فى

(1) الاقتصاد فى الاعتقاد ص١٥ .

الفطرة بذكاء وفطنة فتنبهوا من أنفسهم لإشكالات تشككهم فى عقائدهم وتزلزل عليهم طمأنينتهم أو تقرع سمعهم شبهة من الشبهات التى حاكت فى صدورهم فهؤلاء يجب التلطف بهم فى معالجتهم بإيراد الكلام المقبول عندهم . مثل تلاوة آية أو رواية حديث أو نقل كلام عن شخص مشهور عندهم بالفضل .

الفرقة الرابعة : طائفة من أهل الضلال يتفرس فيهم مخايل الذكاء والفطنة ، ويتوقع منهم قبول الحق إذا أزيل ما اعتراهم فى عقائدهم من الريبة ، فهؤلاء أيضا يجب التلطف بهم فى استمالتهم إلى الحق وإرشادهم إلى الاعتقاد الصحيح بما يتلاءم مع استعدادهم .(١)

بعد هذا البيان لطبائع البشر واستعدادهم لقبول هذا العلم ينهى الغزالى حديثه بأن الاشتغال به فرض كفاية وليس فرض عين ؛ لأن التصديق الجازم وتطهير القلب عن الريب والشك ليس بواجب على كافة الخلق - بناء على التقسيم السابق - وعلى ذلك فقيام بعض الناس فى كل قطر من الأقطار وصقع من الأصقاع بالاشتغال بهذا العلم لمقاومة دعاة البدعة ، واستمالة المائلين عن الحق ، وتصفية القلوب عن عوارض الشبهات يسقط الطلب عن الباقين .(٢)

وكلام الغزالى - رحمه الله - هنا أولى بالقبول والاعتبار ، لأنه لا يمكن أن يستبطن كل الناس أسرار هذا العلم ، كما أنه يوجد فرق بين تحصيل أصول العقيدة الذى هو مطلب لكل معتقد على قدر استعداده ، وبين أن يتفقه فريق فى هذه الأصول بقدر يؤهلهم لتثبيتها فى نفس المسترشد وإزالة الشكوك والأوهام التى تعترضه ودرء الشبهات التى يثيرها الخصم ، فهذا لا يقوم به إلا من تؤهله مواهبه لذلك .

---

(١) المرجع السابق ص١٥ وما بعدها .
(٢) المرجع السابق ص١٩ وما بعدها .

ولاشك أن قول الحق - سبحانه وتعالى - : ﴿ فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ [1] عام فى كل أمور الدين أصولها وفروعها وبيان لحكم التفقه فيه أصلا كان أو فرعا كذلك .

ولا شك أن الاتجاه المغالى فى تحقير علم الكلام واعتباره جدلا فى الدين بلا طائل ، بل الحكم على المشتغلين به بالزندقة إنما ينصب حكمهم على الكلام المذموم ، الذى يراد من ورائه التشكيك بإثارة الشبهات وزعزعة الاعتقاد كالخوض فى المتشابه من القرآن الكريم خوضا لا طائل تحته ، وكالسؤال عن طبائع المغيبات ، مما هو محل للتسليم والإذعان ، وليس مجالا للتعقل والإدراك كما تشير إليه الآية الكريمة : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .[2]

بهذا يتضح أن مهمة هذا العلم قائمة فى إطار تفاعل العقل مع الوحى بما يحفظ لكل منهما قدره .

هذا وبعد أن انتهينا - بحول الله تعالى - من الحديث عن مبادئ علم الكلام لابد لنا من وقفة نتعرف من خلالها على نشأة هذا العلم وتطوره .

---

(١) جزء الآية (١٢٢) من سورة التوبة .
(٢) الآية (٧) من سورة آل عمران .

المبحث الثانى

نشأة علم الكلام وتطوره

المبحث الثانى

نشأة علم الكلام وتطوره

أولا : نشأة علم الكلام :

لاشك فى أن أى علم من العلوم يمر بمراحل عدة حتى توضع أصوله وتستقيم قواعده وتفصل مسائله ، ثم يضيف إليه المشتغلون به من اللاحقين ما يتصورون أن السابقين قد أهملوه ، أو تكون لهم استدراكات على أقوالهم ، وهكذا فأى علم من العلوم يتطور من النشأة والنمو حتى يقرب من الاكتمال على قدر الطاقة .

وعلم الكلام – من الناحية الفنية – قد مر بسلسلة من التطورات حتى استقام على الصورة التى نراها عند المتأخرين أمثال " الإيجى " فى كتابه " المواقف " و" التفتازانى " فى كتابه " المقاصد " .

يرى كثير من المتكلمين أن علم الكلام نشأ عند ظهور الفرق الكلامية كالخوارج والشيعة والمرجئة والمعتزلة والأشاعرة . وأن هذا العلم بمادته وقضاياه إنما هو نتاج هذا التطاحن الفكرى العقدى الذى يمثل تراث هذه الفرق .

وهذا ينتج – بداهة – وبلا شك خلو عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعصر الخلفاء الراشدين من بعده من النظر العقلى العقدى . ويرجع نشأة هذا العلم إلى الحقبة الأخيرة من حكم الخليفة الرابع على بن أبى طالب – كرم الله وجهه – حيث كانت الخوارج تتصارع فكريا مع الشيعة ، ثم ظهرت بعد ذلك فرقتا المعتزلة وأهل السنة وغير ذلك من الفرق الكلامية التى أكثرت القول فى قضايا العقيدة وطال جدلهم حول مسائلها .

ولكن ينبغي علينا قبل قبول هذا الرأى أو رفضه أن ننبه إلى أن التوحيد يطلق بإطلاقين :

الأول : بالمعنى الشرعى الذى جاء به الإسلام وقرره القرآن الكريم فى كثير من سوره وآياته – أعنى إفراد المعبود بالعبادة مع اعتقاد وحدته ذاتا وصفات وأفعالا .

الثانى : بالمعنى الاصطلاحى المدون – وهو العلم الذى يقتدر معه على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج ودفع الشبه . أو هو العلم الباحث فيما يجب لله وما يستحيل وما يجوز والسمعيات .[1]

فالتوحيد بالمعنى الأول ليس دخيلا على الإسلام بل هو عماد الإسلام وأساس الدين وبالتالى لا يكون مستجدا ولا مستحدثا .

أما بالمعنى الثانى فإنه لم يكن موجودا على عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا على عهد الصحابة والتابعين – رضوان الله عليهم أجمعين – وذلك لعدم حاجتهم إلى هذا النوع من العلم آنذاك " لأنهم أدركوا زمان الوحى وشرف صحبة صاحبه – صلى الله عليه وسلم – ، وأزال نور الصحبة عنهم ظلم الشكوك والأوهام .[2]

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى لم يكن هناك من الأحداث والفتن على عهدهم ما يستدعى الجدل والأخذ والرد . بيد أن هذا الوضع لم يدم طويلا فسرعان

---

(١) انظر : توضيح العقائد النسفية ٨/١ .

(٢) مفتاح السعادة لطاش كبرى زادة ١٦٢/٢ ، مذاهب الإسلاميين للدكتور عبد الرحمن بدوى ٢٨/١

ما تبدل الحال وجدت ظروف على الساحة مهدت لنشأة هذا العلم . حيث ظهرت الفتن بين المسلمين وغلب البغى على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء ، وكثرت الفتاوى والرجوع إلى العلماء فى ملمات الأمور . فاشتغلوا بالنظر والاستدلال وتمهيد القواعد والأصول ووضع أسس هذا البناء الذى تكون حول هذه المنازعات وهذا الجدل حتى كان منه ما سمى بعد ذلك بـ " علم الكلام " .

هذا ولا شك فى أن الرأى الذى يرى خلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - والخلفاء الراشدين من بعده من النظر العقلى العقدى وإعلانه تسليم الصحابة بكل ما جاءهم به الرسول - صلى الله عليه وسلم - من عند الله - عز وجل - فى قضايا العقيدة دون نقاش أو إبداء رأى . رأى لا يُطْمَأَنُّ إليه وتنقصه الأدلة على صدق ما ذهب إليه .

وفى هذا الإطار يقول الدكتور عبد السلام عبده : " فمع تسليمنا المطلق بخلو عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم -- من هذا الجدل الذى ألف حاميا وطيسه بين الفرق الكلامية . إلا أننا نعتقد أن هذا لا يعنى خلو هذه الحقبة من الزمن من النظر العقلى العقدى ، غاية ما هنالك أن هذه الفترة التأسيسية من حياة الإسلام طهرت من أدران الشبهات والفكر الملوث الدخيل ، وامتازت بنظافة القلب والعقل معا .

والقلب والعقل إذا خليا من أدران الشبهات وتطهرا وخلصا للحق أدركا الحق ولم يختلفا عليه . وبانعدام الخلاف تظهر الوحدة الفكرية ويتضح الإجماع

المؤمن بها ، وهذا ما اتسم به عهد النبوة والراشدين من بعده فتوهم أنه تسليم دون نظر عقلي . فعهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – وعهد الراشدين من بعده خليا من الجدل لا من النظر العقلي .

إن علم الكلام نشأ للدفاع عن العقيدة الإسلامية وإثبات قضاياه ودرء الشبهات عنها لا لعرض مواطن الخلاف بين الفرق الكلامية فقط .

فهو إذن لسان حق للدفاع عن العقيدة ، ولاشك أن حاجة الدعوة إلى هذا اللسان المدافع ماسة في كل دور من أدوارها ابتداء من إعلان نبئها – على لسان صاحب الوحي – وإلى ما بعد يومنا هذا – أي إلى أن يقوم الناس لرب العالمين – ، فكيف يقال بخلو عصر الرسول والصحابة الراشدين منه ؟ ".(1)

الحقيقة أن علم الكلام نبتت بعض جذوره في عصر الرسول – صلى الله عليه وسلم – حيث روى أنه – عليه الصلاة والسلام – خرج على أصحابه وهم يختصمون في القدر . فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب . فقال : « بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم ؟ تضربون القرآن بعضه ببعض . بهذا هلكت الأمم قبلكم ».(2)

فمنذ أن بزغت شمس النبوة في مكة المكرمة كانت تظهر على الساحة الإسلامية بين الحين والآخر بعض المسائل التي تعتبر من صميم علم الكلام خاصة ما كان منها يتعلق بالذات الإلهية والصفات والأسماء والقضاء والقدر والوعد والوعيد والنبوة والبعث .

(1) العقيدة الإسلامية في ضوء النقل والعقل والقلب ص16 ، تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور علي مصطفى الغرابي ص12 .
(2) سنن ابن ماجة 33/1 المقدمة باب القدر حديث رقم 85 .

لذا يمكن اعتبار قول ذى الخويصرة التميمى لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : اعدل يا محمد فإنك لم تعدل * . ورد الرسول – صلى الله عليه وسلم – بقوله : « إن لم أعدل فمن يعدل » فعاود الرجل وقال : " هذه قسمة ما أريد بها وجه الله – تعالى – وعند هذا قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « سيخرج من ضئضئ ** هذا الرجل قوم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية »[1] خروجا على الإمام بحكم الهوى ، وتحسينا للعقل على النص واستكبارا وعنادا .

كما يعتبر قول طائفة من المنافقين يوم أحد ﴿ هل لنا من الأمر من شيء ﴾[2] وقولهم ﴿ لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هٰهنا ﴾[3] وقولهم ﴿ لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ﴾[4] تصريحا بالقدر .

---

* كان ذلك عند تقسيم الغنائم فى غزوة حنين حيث آثر الرسول – صلى الله عليه وسلم – نفرا ترغيبا وتأليفا لقلوبهم فانبرى هذا الرجل ذو الخويصرة وقال ما قال .
وذهب " فلهوزن " إلى أن هذه القصة أسطورية ولم ترد عن ذى الخويصرة السلفى القديم للخوارج . ونهج نهجه الدكتور عبد الرحمن بدوى حيث اعتبر ذا الخويصرة رجلا مجهولا تماما . انظر : الخوارج والشيعة ليوليوس فلهوزن ص٤٤ وما بعدها ترجمة د/ عبد الرحمن بدوى .إلا أن الخطيب الهاشمى فى كتابه " وقعة النهروان أو الخوارج " يرى مبدأ لا حكم إلا لله وكلمة اعدل يا محمد هما الأساس لمبدأ الخوارج وعقيدتهم . انظر : الخوارج للدكتور مصطفى حلمى ص٢٤ وما بعدها

** ضئضئ : أى من عنصره وذريته .

(١) هكذا ورد الحديث فى الملل والنحل ١/٢٢ وورد فى صحيح مسلم كتاب الزكاة باب ذكر الخوارج ٢/٧٤٠ حديث رقم ١٤٢ بلفظ : " أتى رجل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بالجعرانة بعد غزوة حنين ومع بلال فضة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يأخذ منها ويعطى الناس . فقال الرجل يا محمد اعدل فقال له النبى – صلى الله عليه وسلم – : ويحك . ومن يعدل إذا لم أكن أعدل . لقد خبتُ وخَسِرْت إن لم أكن أعدل فقال عمر : دعنى يا رسول الله فأقتل هذا المنافق فقال – صلى الله عليه وسلم – : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى . إن هذا وأصحابه يقرءون القرآن لا يجاوز حناجرهم يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية .

(٢) جزء الآية [١٥٤] من سورة آل عمران .

(٣) جزء الآية [١٥٤] من سورة آل عمران .

(٤) جزء الآية [١٥٦] من سورة آل عمران .

كما يعتبر ادعاء طائفة من المشركين ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء ﴾ [1] وقوله ﴿ أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ﴾ [2] تصريحا بالجبر .[3]

وما من شك في أن هذه المسائل من صميم علم الكلام ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – ومن بعده الصحابة حتى مقتل علي – رضي الله عنه – كانوا يعالجون هذه المسائل معالجة دينية صرفة الحكم فيها للنص ، والفيصل هو الوحي .

ولقد كان هذا الخلاف وما شابهه سببا لتوقع الرسول – صلى الله عليه وسلم – الفرقة بين المسلمين ، ومن ثم قال – عليه الصلاة والسلام – « لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبرا بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لاتبعتموهم » .[4]

إلا أن الحياة العقلية قد تطورت بتطور الزمن حين ظهرت الفرق الكلامية في آخر عهد الراشدين وبداية عهد بني أمية فكان هذا التراث الضخم الذي ترعرع في ظل الجذور التي نبتت في عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – كما سبق أن أشرت .

يقول محمد عبده في هذا المقام : " هذا النوع من العلم – علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء في النبوات كان معروفا عند الأمم قبل الإسلام ، ففي كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم

---

(1) جزء الآية (35) من سورة النحل .
(2) جزء الآية (47) من سورة يس .
(3) انظر : الملل والنحل للشهرستاني ١/٢٢ وما بعدها .
(4) صحيح مسلم بشرح النووي ١٦/٢١٩ وما بعدها ، وقد ورد في كتب الصحاح بألفاظ أخرى.

إلى ذلك ، لكنهم قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ، ومضارب الدين فى الإلزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب ، على طرفى نقيض . وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه أنه عدو العقل فى نتائجه ومقدماته ، فكان جُلُّ ما فى علم الكلام تأويلا ، وتفسيرا وإدهاشا بالمعجزات ، أو إلهاء بالخيالات ، يعلم ذلك مَنْ له إلمام بأحوال الأمم قبل البعثة الإسلامية .

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة - لدى أصحابها - ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى أنزل فيه ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبى - صلى الله عليه وسلم - بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل فى حال النبى مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا أو ما أوجب علينا أن نعلم ، لكن لم يطلب التسليم به لمجرد أنه جاء بحكايته ، ولكنه ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليهم بالحجة ، وخاطب العقل واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الإحكام ، والإتقان على أنظار العقول ، وطالبها بالإمعان فيها لتصل بذلك إلى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا إليه " .(1)

هذا وقد انتهى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكلمة المسلمين واحدة ، فلم يؤثر أن اختلف المسلمون فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى قضية من قضايا العقيدة التى أكملها الله - تعالى - فى حياة النبى - صلى

(1) رسالة التوحيد ص٩ وما بعدها .

الله عليه وسلم – فلم يلق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ربه إلا وقد كمل الدين ، وتمت النعمة وأنزل الله – تعالى – عليه قوله : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ .[1]

يذكر ابن القيم أن الصحابة – رضوان الله عليهم أجمعين – كانوا يخوضون مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى دقائق المسائل ، ويتفهمون عنه حقائق الإيمان ، وكانوا يوردون عليه ما يشكل عليهم من الأسئلة والشبهات ، فيجيبهم عنها بما يثلج صدورهم ، وقد أورد عليه – صلى الله عليه وسلم – الأسئلة أعداؤه وأصحابه .

أما أعداؤه فللتعنت والمغالبة ، وأما أصحابه فللفهم والبيان ، وزيادة الإيمان وهو يجيب كلا عن سؤاله ، إلا ما لا جواب عنه كالسؤال عن وقت الساعة .[2]

(١) جزء الآية (٣) من سورة المائدة .
(٢) انظر : زاد المعاد ٢/٥٧ .

الخلافات التى وقعت بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

بعد أن انتهى عصر الرسول - عليه الصلاة والسلام - وهو الهادى من الحيرة والسراج فى الظلمة حدثت خلافات بعضها عقدى وبعضها الآخر عملى .

١ - الخلاف حول موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم :

حيث ذهب بعض الصحابة - رضوان الله عليهم - وعلى رأسهم عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - إلى أن الرسول - عليه الصلاة والسلام - لم يمت وإنما رفع كما رفع عيسى ابن مريم .(١)

وفى رواية أخرى أن عمر بن الخطاب قال : " إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - توفى ، وإنه والله ما مات ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة ثم رجع إليهم بعد أن قيل : قد مات . والله ليرجعن رسول الله كما رجع موسى ، فليقطعنَّ أيدى رجال وأرجلهم زعموا أنه مات " .(٢)

فقد أحدث موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم ذهولاً جعل بعض الصحابة يذهل عن هذا المصير الذى ينتظر الخلق أجمعين ورسول الله واحد منهم بل ينسى وهو فى ذهوله قول الله - تعالى - ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ .(٣)

---

(١) انظر : الملل والنحل ٢٤/١ .

(٢) حياة محمد - صلى الله عليه وسلم - الدكتور محمد حسين هيكل ص٥٠٦ .
عن خلال الروايتين يتضح أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - لم يصدق بموت سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - سواء أكان عن طريق الرفع كما حدث لعيسى - عليه السلام . أم عن طريق الغيبة كما حدث لموسى - عليه السلام - .

(٣) الآية (٣٠) من سورة الزمر .

وقد انحسم هذا الخلاف بعودة أبي بكر – رضي الله عنه – من السنح *

فدخل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في حجرة عائشة – رضي الله عنها – فوجده ممددا على فراشه ومسجى ببردته فكشف عن وجهه وقبله ثم قال قولته المشهورة : " بأبي أنت وأمي ما أطيب حياتك وأطيب ميتتك " .(١)

ثم خرج إلى الصحابة وعمر يقرر ما قاله فقال أبو بكر : " من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت " . ثم تلا قول الله – تعالى – : ﴿ وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإين مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزي الله الشاكرين ﴾ .(٢)

ثم يذكرهم بقول الحق – سبحانه وتعالى – لرسوله الكريم – عليه صلوات الله وسلامه – : ﴿ إنك ميت وإنهم ميتون ﴾ (٣) فتسكن النفوس وتطمئن القلوب وتذعن له الرقاب وتجتمع عليه الصحابة وينحسم الخلاف عند هذا الحد ويزول .

٢ – الخلاف في موضع دفنه – عليه الصلاة والسلام – :

اختلفت الآراء حول هذا الموضوع فأراد " أهل مكة من المهاجرين رده إلى مكة : لأنها مسقط رأسه ومأنس نفسه وموطئ قدمه وموطن أهله وموقع رحله . وأراد أهل المدينة من الأنصار دفنه بالمدينة : لأنها دار هجرته ومدار نصرته .

* السنح : مكان بعوالي المدينة وكان الصديق – رضي الله عنه – قد استأذن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يزور أهله هناك لقبض رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو غائب .

(١) الطبقات لابن سعد جـ٢ قسم ٢ ذكر تقبيل أبي بكر الصديق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعد وفاته ص٥٢ .

(٢) الآية (١٤٤) من سورة آل عمران .

(٣) الآية (٣٠) من سورة الزمر .

وأرادت جماعة نقله إلى بيت المقدس ؛ لأنه موضع دفن الأنبياء ومنه معراجه إلى السماء ثم اتفقوا على دفنه بالمدينة "[1] وزال الخلاف ببركة الصديق - رضى الله عنه - حين روى أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « الأنبياء يدفنون حيث يقبضون »[2] فقبلوا منه روايته ورجعوا إلى قوله ودفنوه فى حجرته .

٣ - الخلاف فى الإمامة :

فقد اختلف الصحابة - رضوان الله عليهم - عقب موت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيمن يخلفه . فقد اجتمع الأنصار فى سقيفة بنى ساعدة يتشاورون فيمن يلى أمر المسلمين منهم ، وعلم المهاجرون بذلك فذهب إليهم أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح فوجدوا الأنصار وقد هموا بمبايعة خليفة منهم ، واشتد الخلاف فيمن يلى الأمر حتى قال أحد الأنصار منا أمير ومنكم أمير .

ولكن أبا بكر الصديق - رضى الله عنه - بحنكته وكياسته وحكمته ونور بصيرته حسم الخلاف واستطاع أن يقنع الأنصار بأن الإمامة فى قريش وهذا هو حكم الله الذى لا ينبغى للأنصار أن تخالفه[3] . لأن الله - عز وجل - يقول : ﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾[4]

---

(١) الملل والنحل ٢٤/١ وما بعدها ، والتبصير فى الدين للإسفراييني ص١٩ وما بعدها .
(٢) روى الإمام مالك حديثا بمعناه : باب جامع الصلاة على الجنائز : رقم ٥٤٥ بلفظ أن أبا بكر قال : سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : « ما دفن نبى قط إلا فى مكانه الذى توفى فيه » . موطأ الإمام مالك ص١٥٤ .
(٣) انظر : الملل والنحل ٢٥/١ ، ومقالات الإسلاميين للأشعرى ٣٩/١ وما بعدها ، والتبصير فى الدين ص٢٠ ، وانظر بالتفصيل هذا الموضوع فى كتاب الصديق أبى بكر للدكتور محمد حسين هيكل .
(٤) الآية (٨) من سورة الحشر .

قال أبو بكر فسمانا الله الصادقين ثم أمر المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين فقال – تعالى – : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ [1] ثم روى لهم أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال « الأئمة من قريش إن لهم عليكم حقا ولكم عليهم حقا مثل ذلك ما إن استرحموا فرحموا وإن عاهدوا وفوا وإن حكموا عدلوا فمن لم يفعل ذلك منهم فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » [2] وانتهى الخلاف عند هذا الحد .

هذه هى بعض الخلافات التى ظهرت عقب وفاة النبى – صلى الله عليه وسلم – ، فلما تولى أبو بكر – رضى الله عنه – الخلافة واجه عددا من الخلافات كان لها أثر لا ينكر فى نشأة علم الكلام وإن لم تكن فى ذاتها عقدية منها على سبيل المثال :

أ – الاختلاف فى تسيير جيش أسامة بن زيد إلى بلاد الشام :

حيث عقد الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللواء لأسامة بن زيد على رأس جيش وجهه لمحاربة الذين أكثروا من الإغارة على القبائل الإسلامية المتاخمة لحدودهم ولرد اعتبارهم فى غزوة مؤتة .

لكن الجيش ما كاد يبعد عن المدينة المنورة – على ساكنها أفضل الصلاة والسلام – حتى علم بنبأ وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – فعاد الجيش ليشارك فى وداع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولحماية المدينة من غارات المغيرين فى هذه الظروف العصيبة .

---

(١) الآية (١١٩) من سورة التوبة .

(٢) مسند أحمد ٣ / ١٢٩ وورد برواية أخرى فى مسند أبى يعلى ٦ / ٣٢١ حديث رقم ٣٦٤٥ " الأئمة من قريش إذا حكموا فعدلوا ، وإذا عاهدوا فوفوا ، وإذا استرحموا فرحموا " .

فلما انتهى الصحابة من دفن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمر أبو بكر – رضى الله عنه – أسامة بن زيد أن يقود الجيش إلى مهمته التى كلف بها تنفيذا لأمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وإتماما لعمل قصر الأجل برسول الله عن إتمامه.

وهنا اعترض عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – لأن إنفاذ هذه المهمة يؤدى إلى تعرية المدينة من حاميتها فى ظروف تهددها فيها الأخطار بعد أن انتقضت الجزيرة العربية كلها على الإسلام ما بين مرتد عنه إلى الوثنية، أو منتقص لأركانه بامتناعه عن أداء الزكاة مما اضطر معه أبو بكر – رضى الله عنه – إلى عقد أحد عشر لواء لأحد عشر جيشا لإخماد هذه الفتنة فى معارك حامية عرفت بحروب الردة. واستغرقت فترة خلافة أبى بكر الصديق – رضى الله عنه –.

إلا أن أبا بكر الصديق – رضى الله عنه – قد حرك الجيش تنفيذا لما أمر به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل وفاته، ثم عاد عمر – رضى الله عنه – فاعترض على تعيين أسامة بن زيد وهو حدث لقيادة الجيش وفيه كبار الصحابة والسابقون الأولون فثار * أبو بكر ثورته التى حفظها له التاريخ وقال: " ثكلتك أمك يا ابن الخطاب أيوليه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ويعزله ابن أبى قحافة " وانحسم النزاع وتحرك الجيش بقيادة أسامة بن زيد. وتحقق له النصر والظفر على أعداء الإسلام.

---

* لقد كان هدف أبى بكر – رضى الله عنه – ينحصر فى تنفيذ كل ما أمر به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قبل وفاته على الهيئة التى أمر بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم –، حتى لا يكون هو – رضى الله عنه – أول من نقض لرسول الله أمرا أو عطل له رأيا. وليس من شك فى أن إنفاذ أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يشتمل على أمر تعبدى دينى. إلى جانب رؤيته – صلى الله عليه وسلم – النافذة التى قد لا يصل إلى الحكمة منها غيره ... لذلك – رغم كثرة المخالفين لأبى بكر فى ذلك – فإن رأيه قد غلب وقد نفذ.

ب - الاختلاف فى قتال مانعى الزكاة :

بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - امتنعت بعض قبائل الأعراب عن دفع الزكاة اعتقادا منهم أن هذه الزكاة كانت خاصة بالرسول - صلى الله عليه وسلم - تدفع له وكان هو الذى يقوم بيده الشريفة بتوزيعها على أصنافها الثمانية الذين ذكرتهم الآية الكريمة : ﴿ إنما الصدقات للفقراء [١] والمساكين [٢] والعاملين [٣] عليها والمؤلفة قلوبهم [٤] وفى الرقاب [٥] والغارمين [٦] وفى سبيل الله [٧] وابن السبيل [٨] فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ (١).

ولقد بنت هذه القبائل معتقدها على أساس خاطئ ووقفوا عند ظاهر النص فى قول الحق - تبارك وتعالى - : ﴿ خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم ﴾ (٢) .

فالآية خطاب لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - { خذ } فالأخذ خاص به، دون سواه .

وقوله : ﴿ إن صلاتك سكن لهم ﴾ يفيد أن الزكاة لا تدفع إلا لمن كانت صلاته سكنا لهم وليس أحد مثل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فليس لهم أن يدفعوها إلا له ، وليس لأبى بكر - رضى الله عنه - أو لأحد ممن يلى الأمر بعده أن يطالبهم بها .

حتى قال قائلهم :

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا ∴ فيالعباد الله مالأبى بكر

(١) الآية {٦٠} من سورة التوبة .
(٢) جزء الآية {١٠٣} من سورة التوبة .

ولقد رأى أبو بكر فى منع الزكاة هدما لركن أصيل فى الإسلام دعا إليه القرآن الكريم صراحة ونادت به السنة قولا وعملا .[1]

فقرر قتالهم حتى يدفعوا الزكاة وقال قولته المأثورة : " والله لو منعونى عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – لقاتلتهم عليه " .

وقد خالف عمر بن الخطاب أبا بكر – رضى الله عنهما – وتمسك عمر بظاهر لفظ الحديث فهم فى نظر عمر مسلمون شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله . وقائلها معصوم الدم مصان العرض والمال لا يجوز قتله أو قتاله .

فقد قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا منى دماءهم وأموالهم » .[2]

ولكن أبا بكر تمسك بقول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « إلا بحقها وحسابهم على الله » – أى بحق الإسلام – فالزكاة حق تستباح معه الدماء ، كما فهم من اقتران الصلاة والزكاة من معظم آى الكتاب وأحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – أنهما لا فرق بينهما . ثم سير أبو بكر الجيوش لقتال مانعى الزكاة حتى أنه مضى بنفسه لقتالهم وناصره فى ذلك عمر – رضى الله عنه – فانحسم النزاع .

---

(١) انظر : العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب ص٢٤ وما بعدها .

(٢) صحيح مسلم ١/٥٣ كتاب الإيمان وورد أيضا بلفظ : " أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة فإذا فعلوا عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله " .

إلا أن بعض الباحثين يرون أن هذا الخلاف لم يحسم وأن كل فريق تمسك برأيه واجتهاده . فقد ظل عمر يناصر أبا بكر - رضى الله عنه - حتى لا يتشعب رأى المسلمين أو تتفرق كلمتهم وعندما ولى الأمر بعد وفاة أبى بكر الصديق رد السبايا والأموال إليهم وأطلق المحبوس منهم .(١)

هذا الرأى يعارضه ما ورد فى الصحيح عن عمر - رضى الله عنه - أنه قال : فما إن رأيت أبا بكر قد عزم عزمته حتى اطمأن قلبى إلى رأيه - أو كما ورد فى الرواية - .

وأما رد عمر - رضى الله عنه - السبايا وإطلاق المحبوسين ، فذلك رأى قد تكون الظروف هيأت له ، وقد كان عمر - رضى الله عنه - من ذوى البصيرة والفراسة .. ومن ثم فلا يجوز أن يحمل رده السبايا وإطلاقه المحبوسين على أن قلبه لم يكن خالصا مع أبى بكر - رضى الله عنه - ، أو أنه قد مضت خلافة أبى بكر كلها وعمر - رضى الله عنه - فى قلبه دخل من أبى بكر - رضى الله عن الجميع - .

جـ - فى أمر الخلافة لعمر - رضى الله عنه - :

قبل أن يفارق الخليفة الأول الحياة عين عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - خليفة له يلى الأمر من بعده حتى لا تتفرق كلمة المسلمين ويحدث ما حدث فى سقيفةبني ساعدة .

وقد كان ذلك مثار خلاف بين المسلمين حول موضوع الإمامة التى لا يستطيع أحد أن ينكر أنه أحد موضوعات علم الكلام .

(١) انظر : الملل والنحل ٢٦/١ .

وبالرغم من هذا النزاع فقد تولى عمر بن الخطاب الإمامة وحدث في عهده كثير من الخلافات ، إلا أن حزمه وجرأته وصرامته * في الحق وعدالته في الحكم كل هذه السمات التي اتسم بها لم تفسح المجال لتفرق الرأي واختلاف الكلمة .

ومع ذلك فقد أثيرت بعض المشكلات المتصلة بالعقيدة خاصة مشكلة القدر ، إلا أنها كانت في صورة بسيطة دون إيراد أدلة عقلية . إلا أن البعض أثارها لكي يبرر أفعاله بزعم أن القدر قد يبرر لهم تلك الأفعال التي يقومون بها وأنهم مسوقون إليها .[1]

فقد روى أن عمر – رضي الله عنه – أتى بسارق فقال : لِمَ سرقت ؟ فقال : قضى الله على فأمر به فقطعت يده وضرب أسواطا ، فقيل له في ذلك ، فقال : القطع للسرقة والجلد لما كذب على الله .

ولقد زعم أيضا بعض الذين اشتركوا في قتل عثمان – رضي الله عنه – أنهم ما قتلوه إنما قتله الله ، بل قالوا له حينما حاصروه ورموه : الله يرميك ، فقال : كذبتم لو رماني الله ما أخطاني .[2]

هذا ولم يكن الخلافات التي حدثت بعد وفاة الرسول – صلى الله عليه وسلم – أثر في نشأة علم الكلام ، وكذلك ما حدث من خلافات في عهد أبي بكر وعمر وصدر خلافة عثمان – رضي الله عنهم أجمعين – لأنه لم * يكن في مسائل

---

* أخرج الدارمي في سننه ١/٥٤ عن سليمان بن يسار أن رجلا يقال له صبيغ قدم المدينة فجعل يسأل عن متشابه القرآن فأرسل إليه عمر وقد أعد له عراجين النخل فقال : من أنت قال : أنا عبد الله صبيغ فأخذ عمر عرجونا من تلك العراجين فضربه وقال أنا عبد الله عمر فجعل له ضربا حتى أدمى رأسه فقال : يا أمير المؤمنين حسبك قد ذهب الذي كنت أجد في رأسي .

(١) انظر : حقيقة الخلاف بين المتكلمين للدكتور علي عبد الفتاح ص٢٨ .

(٢) انظر : المنية والأمل لابن المرتضى ص٨ .

اعتقادية . بل كان حول بعض مسائل عملية تدور حول الفرائض (الميراث) التى لم يرد فيها نص قاطع "[1] ومن ثم لم يكن لها أثر فى نشأة هذا العلم .

ولم يدم الحال على ذلك طويلا فقد جد من الأحداث والفتن ما جعل المسلمين يختلفون فى المسائل الاعتقادية كما اختلفوا من قبل فى المسائل العملية .

فعندما تولى عثمان - رضى الله عنه - بدأت الفتن السياسية تطل برأسها إلى أن وقعت الطامة الكبرى وانتهى الأمر بقتله . وقد كان لابن سبأ * اليهودى اليد الطولى فى ذلك حيث ألب الثوار على سيدنا عثمان - رضى الله عنه - فكان ما كان . وبدأ يبث سمومه بين المسلمين . وتظاهر هذا الحاقد بحب على - كرم الله وجهه - بدعوى أنه أحق آل البيت بالخلافة وغالى فى حبه لعلى - كرم الله وجهه - حتى زعم أن الله قد حل فيه . وقد كان مذهبه أساسا لما وجد بعد ذلك من مذاهب غلاة الشيعة .[2]

وبعد قتل عثمان - رضى الله عنه - وتولى على - كرم الله وجهه - الخلافة لم تهدأ الفتنة ولم يستقر الحال بل زاد الشر واتسع الخرق على الراقع . واشتعلت نار الحرب بين المسلمين فكانت موقعة (الجمل) ثم موقعة (صفين) وما كان من أمر التحكيم وخروج قوم من أصحاب على - كرم الله وجهه - سموا (الخوارج) *

---

* يرى بعض الباحثين أن " ابن سبأ " شخصية لا وجود لها وأنه رجل خرافى ليس له وجود تاريخى محقق وذهب إلى ذلك " طه حسين " فى " الفتنة الكبرى " وأثبت وجوده " أحمد أمين " فى " فجر الإسلام " وشايع الفريقين كثير . ومن ذهب إلى إنكاره ليس لهم من الأدلة ما تثبت مدعاهم . انظر ابن سبأ لمرتضى العسكرى ص١٧ . وهامش (١٠١) من كتاب دراسات فى الفكر الفلسفى الإسلامى للدكتور حسام الدين الآلوسى ص٧٢ .

(١) توضيح العقائد النسفية ١/١٠ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .

(٢) انظر : رسالة التوحيد ص١٢ . والبرهان لعباس بن منصور الحنبلى ص٥٠ .

* يرى بعض الباحثين أن مبدأ لا حكم إلا لله ، وكلمة اعدل يا محمد التى قالها ذو الخويصرة التميمى لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - هما الأساس لمبدأ الخوارج وعقيدتهم . انظر : وقعة النهروان أو الخوارج لعلى بن الحسين الهاشمى ص٢٠٤ نقلا عن : الخوارج للدكتور مصطفى حلمى ص٢٥ .

ولقد حاول على - كرم الله وجهه - إقناعهم بالحسنى فأبوا وتمسكوا بأن يقر على نفسه بأنه أخطأ فى التحكيم ، ولم يكتفوا بذلك بل طلبوا منه أن يقر على نفسه بالكفر قبل أن يعودوا معه إلى حرب معاوية وأصحابه .

إلا أن عليا - رضى الله عنه - رفض ذلك فخرجوا عليه وذهبوا إلى قرية قريبة من الكوفة تسمى (حروراء) وتأهبوا لقتل على لكنه حاربهم فى موقعة (النهروان) فدبروا لقتله وكانت نهاية الصراع بين على - كرم الله وجهه - والخوارج اغتيال على واستقرار الأمر لمعاوية ، بيد أن الحرب لم تنته والفتن لم تقف بل سايرت ركاب الدولة الأموية وخصوصا تلك الحروب التى كان يثيرها الخوارج من آن لآخر .

منذ ذلك الحين بدأ بناء الجماعة يتصدع ، وتفرقت عرا الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب فى الخلافة وأخذ الأحزاب فى تأييد آرائهم كل ينصر رأيه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت بداية الاختراع فى الرواية والتأويل وغلا كل قبيل فافترق الناس إلى شيعة وخوارج ومعتدلين .(1)

من هنا يتضح مناصرة الأمويين لمعاوية بن أبى سفيان ، والشيعة لعلى - كرم الله وجهه - والخوارج ينفون عن هؤلاء وأولئك وصف الإيمان ويدخلونهم فى زمرة الكفار ، وبذا أصبحت قضية الإيمان والكفر منطلقا للجدل الذى أصبح من البدايات الأولى لعلم الكلام ، وأثارت الخوارج بعض القضايا وجادلت فى الدين باسم العقيدة ، ومزقت العقيدة باسم الدين وكفرت على ومعاوية ، وأثارت جدالا كبيرا حول قضية الإمامة ، وهل هى بالاختيار أو بالتعيين ...

---

(1) انظر : رسالة التوحيد ص١٢ .

ليس هذا فقط بل بدأت مسألة مرتكب الكبيرة تطل برأسها وكان للفرق موقف حول هذا الموضوع إذ رأت الخوارج أن مرتكب الكبيرة كافر . وأدلت المرجئة بدلوها فى هذا الشأن فنادت بترك الجدل وإرجاء * الأمر إلى الله - عز وجل - فى شأن المتنازعين .

يقول الشهرستانى عنهم : " كانوا يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة " .(١)

ولقد كان التضارب فى الآراء حول مرتكب الكبيرة سببا فى ظهور طائفة المعتزلة حيث عرضت هذه المسألة على الحسن البصرى ليبدى فيها رأيه .

ويحكى لنا الشهرستانى هذا الكلام أثناء كلامه عن أصول الواصلية أتباع واصل بن عطاء فيقول فى " القاعدة الثالثة القول بالمنزلة بين المنزلتين والسبب فيه أنه دخل واحد على الحسن البصرى فقال : يا إمام الدين لقد ظهرت فى زماننا جماعة يكفرون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم كفر يخرج به عن الملة ، وهم وعيدية الخوارج ، وجماعة يرجئون أصحاب الكبائر والكبيرة عندهم لا تضر مع الإيمان بل

---

* الإرجاء على معنيين أحدهما التأخير يقال أرجأت الشئ وأرجيته إذا أخرته يقول القرآن الكريم ﴿ قالوا أرجه وأخاه ﴾ أى أمهله وأخره . والثانى :إعطاء الرجاء مأخوذ من الفعل (أرجى) مزيد (رجا) .

انظر : الملل والنحل ١٤٤/١ وما بعدها ، تاريخ الفرق الإسلامية ص١٩ وورد أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لعنت المرجئة على لسان سبعين نبيا » قيل من المرجئة يا رسول الله ؟ قال : « الذين يقولون الإيمان كلام » يعنى الذين زعموا أن الإيمان هو إقرار وحده دون غيره .

انظر : الفرق بين الفرق للبغدادى ص١٢٢ إلا أن الحديث بهذا النص لم أقف عليه وورد فى المعجم الأوسط للطبرانى ١٦٢/٦ حديث رقم ٧١٦٢ بلفظ : " لعنت القدرية على لسان سبعين نبيا منهم نبينا محمد - صلى الله عليه وسلم - وإذا كان يوم القيامة ، وجمع الناس فى صعيد واحد ، نادى مناد يسمع الأولين والآخرين أين خصماء الله فيقوم القدرية » .

(١) الملل والنحل ١٤٥/١ .

العمل على مذهبهم ليس ركنا من الإيمان ولا يضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة وهم مرجئة الأمة . فكيف تحكم لنا في ذلك اعتقادا ؟ فتفكر الحسن في ذلك وقبل أن يجيب قال : واصل بن عطاء أنا لا أقول إن صاحب الكبيرة مؤمن مطلق ولا كافر مطلق ، بل هو في منزلة بين المنزلتين لا مؤمن ولا كافر ، ثم قام واعتزل إلى أسطوانة من أسطوانات المسجد يقرر ما أجاب به على جماعة من أصحاب الحسن فقال الحسن اعتزل عنا واصل فسمى هو وأصحابه معتزلة* " .[1]

ووجه تقريره أنه قال : " إن الإيمان عبارة عن خصال خير إذا اجتمعت سمي المرء مؤمنا وهو اسم مدح ، والفاسق لم يستجمع خصال الخير ولا استحق اسم المدح فلا يسمى مؤمنا وليس بكافر مطلق أيضا ، لأن الشهادة وسائر أعمال الخير موجودة فيه لا وجه لإنكاره لكنه إذا خرج من الدنيا على كبيرة من غير توبة فهو من أهل النار خالدا فيها إذ ليس في الآخرة إلا الفريقان : فريق في الجنة وفريق في السعير ، لكنه يخفف عنه العذاب وتكون دركته فوق دركة الكفار " .[2]

أما رأى الحسن البصرى فهو أن مرتكب الكبيرة منافق . وقد حاول بعض الباحثين أن يحمل النفاق في كلامه على نفاق العمل لكن الدليل الذى نقل عن الحسن في هذه المسألة يدل على أنه يرى أن مرتكب الكبيرة منافق في التصديق ،

* قيل بالإضافة إلى التسمية السابقة إن هذه الفرقة كانت تطلق على الجماعة الذين اعتزلوا عليا ومعاوية - رضى الله عنهما - .
وفى الطبرى أن قيس بن سعد كتب إلى على يقول : إن قبلى رجالا معتزلين . وقد سألونى أن أكف عنهم وأن أدعهم على حالهم حتى يستقيم أمر الناس .
وقيل : إن السبب هو أنهم اعتزلوا الحرب بين الفريقين الخوارج وأهل السنة . انظر المقريزى وابن خلكان نقلا عن : الفرق بين الفرق للبغدادى ص٧١ (الهامش) تحقيق طه عبد الرءوف .
(١) الملل والنحل ١/٥٥ .
(٢) المرجع السابق ١/٥٥ وما بعدها .

فإنه يقول : إن إقدام الشخص على المعصية المفضية إلى العذاب يدل على أنه كاذب فى دعوى تصديقه بما جاء به النبى – صلى الله عليه وسلم – فإن من اعتقد من العقلاء أن فى هذا الجحر حية لا يدخل يده فيه فإن أدخلها علمنا أنه كان لا يعتقده . فهذا كلام صريح يدل على أن مرتكب الكبيرة منافق فى التصديق فى رأيه ، ولذا قيل إن الحسن رجع عن هذا الرأى .[1]

وهكذا كانت مسألة مرتكب الكبيرة سببا فى ظهور مدرسة الاعتزال* ، ولم يقف الخلاف عند هذا الحد بل امتد ليشمل مسألة الاختيار واستقلال الإنسان بإرادته وأفعاله الاختيارية .... إلى آخره .

هذا ولقد كثر الجدل فى العقائد الإيمانية فى العصر العباسى واتخذ ألوانا لم تكن فى عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم – ولا الصحابة الأوائل . وفى هذا المناخ القائم على الجدل ظهر علم الكلام .

فقد حدث فى آخر أيام الصحابة بدعة القول بالقدر كما ذكر الشهرستانى على أيدى " معبد الجهنى " وآخرين .[2]

ويورد ابن سعد موقف الرسول – صلى الله عليه وسلم – من مسألة القضاء والقدر فى رواية عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن ابنى العاص أنهما قالا :

---

(1) انظر : عبد الحكيم على شرح العقائد النسفية ص٥٧ نقلا عن : توضيح العقائد النسفية ١٤/١ شرح وتحليل د/ سليمان خميس .

* سمى المعتزلة أنفسهم أصحاب العدل والتوحيد ووضعوا القواعد التى سميت باسم الأصول الخمسة وهى التوحيد والعدل ، والوعد والوعيد ، المنزلة بين المنزلتين ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

انظر : شرح الأصول الخمسة للقاضى عبد الجبار ص١٢٤ .

(2) انظر : الملل والنحل ٥٤/١ .

ما جلسنا مجلسا فى عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كنا به أشد اغتباطا من مجلس جلسناه يوما جئنا فإذا أناس عند حجر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يتراجعون فى القرآن فلما رأيناهم اعتزلناهم، ورسول الله - صلى الله عليه وسلم - خلف الحجر يسمع كلامهم. فخرج علينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مُغْضَبًا يُعْرَفُ الغضب فى وجهه. حتى وقف عليهم فقال: أى قومي بهذا ضلت الأمم قبلكم باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتاب بعضه ببعض، إن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض، ولكن يصدق بعضه بعضا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما تشابه عليكم فآمنوا به ثم التفت إلىّ وإلى أخى، فغبطنا أنفسنا أن لا يكون رآنا معهم».(1)

ولا شك فى أن هذا القول الجامع من الرسول - صلى الله عليه وسلم - يبين المنهاج السليم الذى ينبغى أن يسير عليه المسلمون حتى لا يتفرقوا ويفتتنوا فى دينهم وذلك عن طريق توجيه أصحابه إلى المنهج والطريق الذى ينبغى أن يكون والذى يتمثل فيما يلى:

١ - النهى عن الجدل المؤدى للفتنة، والبعد عما يناقض الفطرة والتوحيد.

٢ - عدم ضرب كتاب الله بعضه ببعض. لأنه لا تعارض ولا اختلاف بين نصوصه وآياته.(2)

والأمر الذى لا شك فيه أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - منع أصحابه

---

(١) الطبقات لابن سعد جـ٤ - قسم ١ ص ١٤١ فى ترجمة هشام بن العاص.

(٢) انظر: فضل علم السلف على الخلف لابن رجب الحنبلى ص٧ وما بعدها، مدخل لدراسة علم الكلام للدكتور سامى عفيفى ص١٦.

من التنازع والجدل والمراء حتى لا تنزلق أقدامهم للهاوية ، لكنه لم يمنعهم من البحث والنظر للوصول إلى الحق والنجاة من مزالق الشبهات .

ومع هذا فإن الخلاف قد اتسع واشتد الجدل والنزاع حول مسألة القدر فى عهد الخلفاء الراشدين ويبدو أن ذلك راجع إلى عدة أسباب من أهمها :

١ - انتقال الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى الرفيق الأعلى فافتقد المسلمون شخصه الكريم وحجته البالغة التى كانت تطمئن قلوبهم .

٢ - ظهور بعض القضايا التى كانت تثير تساؤل الكثيرين وتبعث فيهم التطلع للوقوف على رأى فى مشكلة القضاء والقدر .

٣ - دخول بعض الأفراد والجماعات حديثى العهد بالدين فى رحاب الإسلام والذين لم يتمكنوا من فهم أصوله ولم يسعدهم الحظ بصحبة الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - .

وهذا بلا شك يدلنا على أن علم الكلام لم ينشأ رغبة من المتكلمين فى الجدل والمراء ، وإنما نشأ لمهمة أساسية وهى الدفاع عن الدين ودرء الخطر الذى كاد يزلزل قضايا الإسلام من نفوس المسلمين .

فى هذا الإطار يذكر الدكتور أبو الوفا التفتازانى : أن علم الكلام الإسلامى لم ينشأ نتيجة سبب بعينه ، وإنما هو نتاج أسباب متضامنة وعوامل متضافرة حلت بالبيئة الإسلامية واقتضت وجوده على الصورة التى نراه عليها فى تاريخ الفكر الإسلامى .(١)

(١) انظر : علم الكلام وبعض مشكلاته ص٦ .

عوامل نشأة علم الكلام

لقد كان لنشأة علم الكلام عوامل داخلية * وأخرى خارجية إلا أن بعض الباحثين يقصرون عوامل النشأة على العوامل الداخلية فقط ، والبعض الآخر يعزى ذلك إلى العوامل الخارجية ، وهناك فريق ثالث يقول بهما معا . إلا أنه من الصعوبة بمكان فصل العاملين عن بعضهما البعض فكلاهما متداخل مع الآخر وملازم له .

وفيما يلى سوف نعرض هذه الآراء مع نسبة كل رأى إلى من يقول به :

الرأى الأول : يعزى نشأة علم الكلام إلى أسباب داخلية بحتة ، وبالتالى يرى أنه نشأ نشأة داخلية تلقائية ويمثل هذا الرأى كرادى فو ورينان وعمر فروخ .

يقول كرادى فو : " وتدل هذه الملاحظات على أن علم الكلام أو اللاهوت النظرى نشأ نشوءا تلقائيا فى حضن الإسلام ، وذلك قبل دخول الفلسفة اليونانية التى أدت كما نبين إلى توسيعه وضبطه وتنظيمه ... وإنما صدر عن المجادلات الأولى التى هزت المسلمين ... ومع ذلك فإنه كان مدينا فى تكوينه الأول لأكابر الفقهاء ، ومن بينهم واضع منهاج الرأى أبو حنيفة ، وقد قاوم الشافعى علم الكلام محتفظا فى منهاجه بالحد الأدنى من هذا العلم ، كما صنع الغزالى فيما بعد " .[1]

ويشارك فى هذا الرأى أيضا رينان .[2]

ويَعْزُو ابن خلدون نشأة علم الكلام فى بعض جوانبه إلى تفسير المتشابه من القرآن الكريم .

---

* المقصود بالعوامل الداخلية التى نبعت من داخل البيئة الإسلامية ذاتها ، وبالعوامل الخارجية ما هو عكس ذلك .

(١) الغزالى لكارادى فو ص ٢٢ وما بعدهما نقلا عن : دراسات فى الفكر الفلسفى الإسلامى للدكتور حسام الدين الآلوسى ص٨٢ .

(٢) انظر : ابن رشد والرشدية ص١١٦ نقلا عن:المرجع السابق .

يقول ابن خلدون توجد فى القرآن الكريم آيات متشابهة يلتبس معناها على القارئ لذلك نشأ : " خلاف فى تفاصيل هذه العقائد أكثر مثارها من الآى المتشابهة فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث بذلك علم الكلام " .(١)

وقد ذهب إلى ما ذهب إليه ابن خلدون كل من حنا الفاخورى وخليل الجرحيث إذ يقولان إذا فهمنا بعلم الكلام النظر فى العقائد الإيمانية لمجرد فهم النصوص التى تحددها ، فنستطيع أن نعود إلى النواة الأولى للإسلام ونجد أن أكثر العلوم نشأت من القرآن وحوله " .(٢)

من هنا نرى أن ابن خلدون ورينان وكرادى فو يرون أن علم الكلام نشأ نشأة تلقائية ، ولم يعتمد على أسباب خارجية . والقول بأن علم الكلام نشأ حول القرآن الكريم والدفاع عنه أمر يتفق عليه كل من يقول إن علم الكلام نشأ نشأة تلقائية .

ولقد ذهب عمر فروخ فى كتابه " تاريخ الفكر العربى " إلى أن علم الكلام نشأ نشأة داخلية معزيا ذلك إلى أربعة أسباب :

١ – الفضول العقلى .

٢ – التشدد فى المبادئ .

٣ – التفكير السياسى .

٤ – إقناع غير العرب .

---

(١) المقدمة ص ٤٢٧ ، وذهب إلى ذلك أيضا الدكتور عامر النجار فى كتابه علم الكلام ص٥٧ ، والدكتور أبو الوفا التفتازانى فى كتابه علم الكلام وبعض مشكلاته ص٨ وما بعدها .

(٢) تاريخ الفلسفة العربية ١/١٧١ .

ولكن يبدو أن السبب الأخير قد يجعله من القائلين بالأثر الخارجي لعلم الكلام .

الرأى الثانى : يرى أن نشأة علم الكلام ترجع إلى أسباب خارجية فقط ، ويمثل هذا الرأى الدكتور على سامى النشار* حيث يقول : " وعلم الكلام بحث فلسفى ؟ إنه حقا يختلف عن الفلسفة المشائية الميتافيزيقية فى كثير من أصولها ، ويستمد من القرآن مادته ، ولكنه كان فى جوهره بحثا ميتافيزيقيا . كيف نوفق إذن بين قيام هذا العلم على أسس فلسفية ، وبين قولنا إن الإسلام لم يدع إلى قيام فلسفة ميتافيزيقية ، حتى ولو قامت على أصوله ؟ هنا مشكلة بدء الفلسفة الإسلامية الميتافيزيقية أو نشأة التفكير الفلسفى الإسلامى " .(١)

ويرى الدكتور سامى النشار أن العوامل الخارجية التى أدت لنشأة علم الكلام هى اليهودية والمسيحية والفلسفة اليونانية والمذاهب الغنوصية الشرقية .

أما العوامل الداخلية فهى عوامل سياسية ولغوية واقتصادية .

الرأى الثالث : يقول بهما معا أى بالعوامل الداخلية والخارجية ويمثل هذا الرأى كارديت وقنواتى وجولد تسيهر .(٢)

وفيما يلى سوف نتحدث عن كل من العوامل الداخلية والخارجية لنشأة علم الكلام .

---

* أشار إلى ذلك الدكتور حسام الدين الألوسى فى كتابه دراسات فى الفكر الفلسفى ص٨٤ مع أن الدكتور النشار قال بتقدير العوامل الداخلية حيث ذكر فى كتابه نشأة الفكر الفلسفى ص٦١ " ... وهذا يدعو إلى القول بأهمية العوامل الخارجية مع تقدير العوامل الداخلية " .

(١) نشأة الفكر الفلسفى فى الإسلام للدكتور سامى النشار ص ٦٠ .

(٢) نقلا عن : دراسات فى الفكر الفلسفى الإسلامى للدكتور حسام الدين الألوسى ص٨٢ ، ٨٦.

أولا : العوامل الداخلية وتتمثل فى :

١ - طبيعة القرآن الكريم :

تعرض القرآن الكريم بجانب دعوته إلى التوحيد لأهم الفرق والديانات* التى كانت منتشرة فى عهد النبى - صلى الله عليه وسلم - فرد عليهم ونقض أقوالهم فكان طبيعيا أن يسلك علماء المسلمين مسلك القرآن الكريم فى الرد على المخالفين** . فكلما جدد المخالفون وجوه الطعن جدد المسلمون طرق الرد .

ولاشك أن علم الكلام شأنه فى ذلك شأن سائر العلوم الإسلامية فقد وجد منطلقا من القرآن الكريم منهاجا وموضوعا ، فمن الناحية المنهجية لا يتعارض النظر مع الإيمان ، فقد حث القرآن الكريم المسلمين على النظر والتدبر والاستدلال فى ملكوت السموات والأرض .

قال - تعالى - : ﴿ إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ .(١)

﴿ إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾ .(٢)

﴿ لعلكم تعقلون ﴾ .(٣)

---

* كاليهود والنصارى والصابئة والمجوس قال - تعالى - : ﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد ﴾ الآية (١٧) من سورة الحج .

** لقد رد القرآن الكريم على المخالفين أمثال الدهرية القائلين : ﴿ وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ جزء الآية (٢٤) من سورة الجاثية .
كما رد على أولئك الذين ألهوا الكواكب وعبدوها كالصابئة قال - عز وجل - حكاية عن سيدنا إبراهيم - عليه السلام - : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين ﴾ الآية (٧٦) من سورة الأنعام . ورد أيضا على منكرى البعث قال - سبحانه وتعالى - : ﴿ يوم نطوى السماء كطى السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين ﴾ الآية [١٠٤] من سورة الأنبياء .
وما هذا الذى أوردته إلا ضرب أمثلة وذكر نماذج وإلا فالآيات فى هذا المقام لا تقع تحت الحصر .

(١) جزء الآية [١١] من سورة النحل .
(٢) جزء الآية [١٢] من سورة النحل .
(٣) جزء الآية [٢٤٢] من سورة البقرة .

وفى نفس الوقت ذم القرآن الكريم هؤلاء الذين لا يفكرون أو لا يعقلون ونعى على التقليد والمقلدين دون تفكير* .

ولا جدال فى أن الأنبياء أسوة وقدوة لمن أرسلوا إليهم فقد جاء إيمان أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - بعد نظر عقلى حيث رفض عبادة الآفلين فجاء إيمانه بالذى فطر السموات والأرض إيمانا عن يقين .

قال - عز وجل - : ﴿ فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين • فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين • فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون • إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين ﴾ .[1]

ثم تدرج بعد ذلك من الإيمان إلى الاطمئنان حين سأل ربه أن يريه كيف يحيى الموتى ؟

قال - تعالى - : ﴿ قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى ﴾[2]

ولقد عرضت بعض السور القرآنية الحوار المنطقى الذى ورد لإفحام المشركين . يقول الإمام الأشعرى : " وأما الكلام فى أصول التوحيد فمأخوذ أيضا من الكتاب . قال - تعالى - : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا ﴾[3] وهذا

---

* قال - تعالى - : ﴿ وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير ﴾ الآية (٢١) من سورة لقمان .

(١) الآيات (٧٦ - ٧٩) من سورة الأنعام .

(٢) جزء الآية (٢٦٠) من سورة البقرة

(٣) جزء الآية (٢٢) من سورة الأنبياء

الكلام موجز منبه على الحجة بأنه واحد لا شريك له وكلام المتكلمين فى الحجاج فى التوحيد بالتمانع والتغالب فإنما مرجعه إلى هذه الآية .

وقوله – عز وجل – : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض ﴾[1] إلى قوله – عز وجل – : ﴿ أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم ﴾[2] .

وكلام المتكلمين فى الحجاج فى توحيد الله إنما مرجعه هذه الآيات التى ذكرناها وكذلك سائر الكلام فى تفصيل فروع التوحيد والعدل إنما هو مأخوذ من القرآن " .[3]

وهناك كثير من النماذج التى تدل على أن قضايا علم الكلام وردت فى القرآن الكريم كمسألة نشأة الإنسان ونشأة الكون والقضاء والقدر ومصير الكون وهذه المسائل التى عرضها الإسلام شغلت بال الإنسان منذ أن أدرك وجوده .

يقول الدكتور سليمان دنيا إن القرآن الكريم بحق : " خاض مع من أدهشتهم جدة تعاليمه نقاشا ، قابل فيه الرأى بالرأى والدليل بالدليل .

وفى القرآن من هذا الحجاج ثروة علمية تكررت فى مواضع منه بأسلوب لا يمل سماعه وترداده " .[4]

ويقول الدكتور يحيى هاشم : " لقد تصدى المسلمون لفهم كتابهم المنزل فهما له فى ذاته : فى قضية وجوده ، قديما أو محدثا ، وفى ما يضمه من آيات أنتفتح

---

(١) جزء الآية (٩١) من سورة المؤمنون .
(٢) جزء الآية (١٦) من سورة الرعد .
(٣) استحسان الخوض فى علم الكلام رسالة ملحقة بكتاب علم الكلام للدكتور عامر النجار ص٩٦ .
(٤) التفكير الفلسفى الإسلامى ص٣٢٤ ، فى علم الكلام الدكتور أحمد صبحى ١٢/١ .

للفهم بأحكامها أو تنغلق عليهم بمتشابهها ، وفى ما تتضمنه الآيات من جوانب وأعماق : ظاهرا وباطنا تفسيرا وتأويلا . وفى علاقة القرآن وموقفه العام من التفكير فى العقيدة . وفهما له فيما يدل عليه من مسائل العقيدة فى الإلهيات والنبوات والسمعيات والكونيات والجدل مع أرباب المذاهب المختلفة .

ولقد كان تصدى المسلمين لهذا الفهم بأنواعه أمرا نابعا من صميم علاقتهم بالقرآن وانتمائهم إليه ، وإيمانهم به ... وفى بحث الباحثين للقرآن تعرفوا على موقفه من التفكير فى العقيدة ، فوجدوا منه تشجيعا يدفعهم للنظر والاجتهاد المسترشد بهدى الله ، المستقل عن دعاوى الآباء ... وجدوا فى الآيات رؤوس مسائل ، كما وجدوا فيها طريقة نظر ، ووجدوا فيها قرارا برأى أو انفتاحا على بحث . ولقد تناولوه بالبحث فى كل ذلك آخذين بصريحه ، مجتهدين فى متشابهه ، مرتادين فيه إلى مواطن تبتعد عن أطره فى بعض الأحيان " .(١)

ولقد ذهب البعض إلى أن القرآن بعيد عن علم الكلام معاد له ، بل مناقض له .. وهذه دعوى لا يسلم بها الكثيرون من الباحثين وأرباب التفكير قديما وحديثا .

فقد ذكر ابن عساكر فى كتابه رواية عن الإمام القشيرى أنه قال : " والعجب ممن يقول ليس فى القرآن علم الكلام والآيات التى هى فى الأحكام الشرعية نجدها محصورة والآيات المنبهة على علم الأصول نجدها توفى على ذلك وتربى بكثير" .(٢)

ويقول الزركشى أيضا فى هذا المقام : " وما من برهان ودلالة وتقسيم

---

(١) عوامل وأهداف نشأة علم الكلام فى الإسلام للدكتور يحيى هاشم ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ باختصار نقلا عن : علم الكلام للدكتور عامر النجار ص٣٦ .
(٢) تبيين كذب المفترى ص٣٥٩ .

وتحديد شئ من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله – تعالى – قد نطق به ، لكن أورده – تعالى – على عادة العرب ، دون دقائق طرق أحكام المتكلمين " .

ثم يقول : " واعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق المتكلمين " .(1)

كما يقرر الدكتور سليمان دنيا : أن الدور الأساسى فى نشأة علم الكلام كان للقرآن الكريم وينكر بقوة دعوى البعض أن القرآن يعوق النظر العقلى .(2)

والأمر لم يقتصر على اعتبار القرآن الكريم فقط أحد العوامل الأساسية التى أدت إلى نشأة علم الكلام . بل إن البعض يقرر ويضيف إلى ذلك أحاديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – التى كانت عاملا مساعدا فى إيجاد علم الكلام إذ أن هناك بعض الأحاديث التى تعتبر أصولا لمسائل كلامية .(3)

فقد ذكر الإمام البغوى عددا من الأحاديث الصحاح فى رؤية الله – سبحانه وتعالى – فى الجنة منها :

قول الرسول – صلى الله عليه وسلم – : « إنكم سترون ربكم عيانا »(4)

وقوله – عليه السلام – : « إنكم سترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته ... » .(5)

---

(1) البرهان ٢/٢٤ وما بعدها .
(2) التفكير الفلسفي الإسلامى ص٣٢٤ .
(3) انظر : مقدمة شرح المقاصد للدكتور عبد الرحمن عميرة ١/٣٦ ، علم الكلام للدكتور عامر النجار ص٦٢ .
(4) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٣/٤١٩ كتاب التوحيد .
(5) فتح البارى بشرح صحيح البخارى ١٣/٤١٩ كتاب التوحيد ، الاعتقاد للبيهقى ص٦٠ .

وذكر الإمام البغوى فى مسألة القدر : « ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من النار ومقعده من الجنة ، قالوا : يا رسول الله أفلا نتكل على كتابنا وندع العمل ؟ قال : لا اعملوا فكل ميسر لما خلق له » .(١)

وذكر أيضا الإمام البغوى من الأحاديث الصحاح قول الرسول - صلى الله عليه وسلم - عن أبى هريرة رضى الله عنه - أنه قال : « جاء ناس من أصحاب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى النبى فسألوه إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أوجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان .(٢)

وقال : يأتى الشيطان أحدكم فيقول : من خلق كذا ؟ من خلق كذا ؟ حتى يقول : من خلق ربك ؟ فإذا بلغه ، فليستعذ بالله ولينته .(٣)

وقال : « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئا فليقل : آمنت بالله ورسله » .(٤)

٢ - اختلاف الرأى حول المتشابه فى القرآن الكريم خاصة ما يتصل بالأمور الاعتقادية .

لقد كان عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعهد الخليفتين الراشدين

---

(١) مصابيح السنة ١٣٤/١ كتاب الإيمان باب القدر متفق عليه أخرجه البخارى فى الصحيح ٢٢٥/٢ كتاب الجنائز ٢٣ ، ومسلم فى الصحيح ٢٠٣٩/٤ كتاب القدر واللفظ البخارى .

(٢) مصابيح السنة ١٢٨/١ كتاب الإيمان فصل فى الوسوسة وأخرجه مسلم فى الصحيح ١١٩/١ كتاب الإيمان (١١) باب تجاوز الله عن حديث النفس والخواطر بالقلب إذا لم تستقر (٥٨) الحديث (١٢٧/٢٠١) ، (٢٠٢ / ١٢٧) واللفظ للبخارى .

(٣) مصابيح السنة ١٢٨/١ متفق عليه أخرجه البخارى فى الصحيح ٣٣٦/٦ ، كتاب بدء الخلق (٥٩) باب صفة إبليس وجنوده (١١) الحديث (٣٢٧٦) ، ومسلم فى الصحيح ١٢٠/١ كتاب الإيمان (١) باب بيان الوسوسة فى الإيمان (٦٠) الحديث (١٣٢/٢٠٩) .

(٤) مصابيح السنة ١٢٨/١ أخرجه مسلم فى الصحيح ١١٩/١ - ١٢٠ كتاب الإيمان (١) باب بيان الوسوسة فى الإيمان (٦٠) الحديث (١٢٤/٢١٢) و(١٢٤/٢١٣) .

أبي بكر وعمر – رضى الله عنهما – من بعده عهدى تأسيس العقيدة الإسلامية . حيث لم تتفرق كلمة الأمة حول أية مسألة من مسائل العقيدة التي استوفاها الله كاملة ، كما أنهم لم يحاولوا الخوض في متشابه* القرآن الكريم .

وإذا كان البعض قد حاول الخوض فيه في عهد عمر بن الخطاب – رضى الله عنه – كما حدث من عبد الله صبيغ حين تتبع المتشابه من القرآن الكريم وأخذ يسأل عنه ، ولعله كان يبغى الفتنة فإنه قد لقى من حزم أمير المؤمنين ما أذهب ما كان يجده برأسه ، فقد ضربه بعراجين النخل على رأسه حتى قال ذهب ما كنت أجده برأسي يا أمير المؤمنين .

وقد يرد تساؤل وهو لماذا لم ينزل القرآن الكريم كله محكما حتى يكفى المسلمين شر الافتراق ؟

يقول صاحب الكشاف ردا على ذلك في تفسيره لقول الحق – سبحانه وتعالى – : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ .(١)

* حيث إنه لا فرق عندهم بين آيات ظاهرها التشبيه ، وأخرى ظاهرها التنزيه . وليتقبلوا كل ما جاء به القرآن من غير أن يعقدوا مقارنة بين آياته . حيث إنهم أيقنوا وآمنوا أنه من عند الله ، ولينصرفوا إلى إصلاح أنفسهم ، والعمل على إصلاح غيرهم بهذا القانون الذى جاءهم به محمد – صلى الله عليه وسلم – من عند الله . ولقد كان إذا عن لأحدهم شبهة في شئ لا يستشير عقله في هذه الشبهة أو يستقل ببحثها ، ولكنه يرجع إلى الرسول – عليه السلام – يسأله عما حدث له والرسول بدوره يرشده إلى الحق ، ولهذا كانت نفوسهم راضية مطمئنة.

انظر : تاريخ الفرق الإسلامية للدكتور مصطفى الغرابى ص١٢ .

(١) الآية (٧) من سورة آل عمران .

عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هذه الآية : ﴿ هو الذى أنزل عليك الكتاب ﴾ فقال : « إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله ، فاحذروهم » . صون المنطق والكلام للسيوطى ص٢٩ .

يقول الزمخشرى : " لو كان كله - أى القرآن - محكما لتعلق الناس به لسهولة مأخذه ولأعرضوا عما يحتاجون فيه إلى الفحص والتأمل من النظر والاستدلال ، ولو فعلوا ذلك لعطلوا الطريق الذى لا يتوصل إلى معرفة الله وتوحيده إلا به ، ولما فى المتشابه من الابتلاء والتمييز بين الثابت على الحق والمتزلزل فيه ، ولما فى تقادح العلماء وإتباعهم القرائح فى استخراج معانيه ورده إلى المحكم من الفوائد الجليلة والعلوم الجمة ونيل الدرجات عند الله " .(1)

وبلا شك فإن وجود المتشابه فى القرآن الكريم قد فتح بابا للتأويل والرأى والجدل .

يذكر ابن خلدون أن وجود المتشابه فى القرآن الكريم كان سببا رئيسيا فى نشأة علم الكلام حيث وقع بعض المسلمين فى التشبيه والتجسيم " فدعا ذلك إلى الخصام والتناظر والاستدلال بالعقل زيادة إلى النقل فحدث علم الكلام ... وذلك أن القرآن ورد فيه وصف المعبود بالتنزيه المطلق الظاهر الدلالة من غير تأويل فى آى كثيرة ، هى سلوب (أى سالبة عن الله التشبيه بالخلق) كلها وصريحة فى بابها ، فوجب الإيمان بها ، ووقع فى كلام الشارع - صلوات الله عليه - وكلام الصحابة والتابعين تفسيرها على ظاهرها . ثم وردت فى القرآن الكريم آى أخر قليلة توهم التشبيه مرة فى الذات وأخرى فى الصفات " .(2)

فكان للسلف فى المتشابهات رأى يخالف الخلف . فالسلف قد فوضوا الأمر فيها لله - تعالى - مع اعتقاد التنزيه المطلق له - سبحانه وتعالى - فلله يد ، لأن القرآن الكريم قال ﴿ يد الله فوق أيديهم ﴾ (3) لكن هذه اليد لا يعلم حقيقتها إلا هو .

(1) الكشاف 1/259 .
(2) مقدمة ابن خلدون ص427 .
(3) جزء الآية (10) من سورة الفتح .

ولقد أورد البيهقي عن يحيى بن يحيى أنه قال : كنا عند مالك بن أنس فجاء رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [1] كيف استوى ؟ فأطرق مالك رأسه ثم قال : الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعا ، فأمر به أن يخرج [2]

وفي هذا المجال يذكر الشهرستاني موقف السلف من المتشابهات في القرآن الكريم فيقول إنهم قالوا : " نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله لا يشبه شيئا من المخلوقات " .[3]

ويقول الرازي في هذا المقام " إن هذه المتشابهات يجب القطع فيها بأن مراد الله تعالى منها شئ غير ظواهرها . ثم يجب تفويض معناها إلى الله ، ولا يجوز الخوض في تفسيرها " .[4]

يقول ابن خلدون : " ... وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا في التشبيه ، ففريق أشبهوا في الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا في التجسيم الصريح ، ومخالفة آى التنزيه المطلق ... ، وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه في الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وآل قولهم إلى التجسيم " .[5]

أما الخلف فقد رأوا أن التفويض لا يصلح في دنيا تتسع آفاقها ويكتسب فكرها طريقا جديدا في كل يوم فأولوا هذا المتشابه من القرآن بحيث يتمشى مع

(١) الآية (٥) من سورة طه .
(٢) الاعتقاد للبيهقي ص ٥١ وما بعدها .
(٣) الملل والنحل ١١٠/١ .
(٤) أساس التقديس ص١٨٢ .
(٥) المقدمة ص٤٢٨ .

فهمهم للصفات الإلهية ويحقق تنزيه الله – سبحانه وتعالى – عن شبه المخلوقين ، وينفى عنه – عز وجل مشابهة المخلوقين له نفيا قاطعا مستخدمين فى ذلك ما يؤيد وجهة نظرهم من قواعد اللغة العربية واستعمالاتها .

فقسروا الاستواء بالاستيلاء فى قوله – تعالى – : ﴿ الرحمن على العرش استوى ﴾ [1] أى الرحمن استوى على العرش فهو مالك للعرش لا جالس عليه مبالغة فى نفى المكانية عنه – سبحانه وتعالى – .

هذا ولا شك فى أن المتشابهات قد أخذت مجالا واسعا فى علم الكلام وارتبطت ارتباطا وثيقا بمبحث الصفات .

٣ – مسألة الإمامة :

لقد كان الاختلاف حول مسألة الإمامة بعد وفاة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أول الاختلافات بين المسلمين .

يقول الأشعرى : " وأول ما حدث من الاختلاف بين المسلمين – بعد نبيهم صلى الله عليه وسلم – اختلافهم فى الإمامة " .[2]

هذا ولازال الانشقاق المذهبى بين المسلمين قائما بين أهل السنة والشيعة والخوارج . ولم تكن مشكلة الإمامة وحدها هى المسألة السياسية التى آلت إلى مبحث عقائدى ، بل إن هناك مسألة أخرى تفرعت عن الإمامة ألا وهى مسألة حكم مرتكب الكبيرة ، فقد أنتجت هذه المسألة أكثر من مبحث فى علم الكلام " كالأسماء والأحكام " و" الجبر والإختيار " ... إلى آخره .[3]

---

(١) الآية (٥) من سورة طه .
(٢) مقالات الإسلاميين ٣٩/١ .
(٣) انظر : فى علم الكلام ١٧/١ وما بعدها .

وينبغى أن نذكر هنا أن بدايات الفرق الثلاث - الشيعة والخوارج والمرجئة - كانت سياسية محضة ، لأن سبب نشأتها هو أمر الخلافة الإسلامية ، إلا أنها قد اتخذت بعد ذلك طابعا دينيا محضا وتأثرت بمبادئ أجنبية متطرفة .

٤ - العصبية العربية :

لقد كانت العصبية من أسباب الخلاف بل إنها هى جوهر الخلاف الذى فرق شمل الأمة . فعلى الرغم من أن الإسلام قد حارب العصبية فى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة .

من ذلك قول الحق - عز وجل - :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .(١)

وقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - :

« ليس منا من دعا إلى عصبية ، وليس منا من قاتل على عصبية ، وليس منا من مات على عصبية » .(٢)

وقوله - أيضا - : « كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، لا فضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى » .(٣)

---

(١) جزء الآية [١٣] من سورة الحجرات .
(٢) سنن أبى داود ٥/٢٤٢ حديث رقم ٥١٢١ إعداد وتعليق عزت عبيد الدعاس وعادل السيد .
(٣) موسوعة الأطراف ٦/٤٥٢ وأحاله على مسند الربيع ابن حبيب ٢/٨ . وتوجد رواية بلفظ آخر فى مسند أحمد ٢/٣٦١ عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « إن الله عز وجل قد أذهب عنكم عبية الجاهلية وفخرها بالآباء مؤمن تقى وفاجر شقى والناس بنو آدم وآدم من تراب ، لينتهين أقوام فخرهم برجال أو ليكونن أهون عند الله من عدتهم من الجعلان التى تدفع بأنفها النتن " .

ولقد اختفت هذه العصبية فى عهد المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وظلت هكذا ثم انبعثت بصورة قوية فى آخر عهد الشهيد عثمان بن عفان - رضى الله عنه - .

وقد كان لظهورها أثر كبير فى الاختلاف بين " الأمويين " و" الهاشميين " أولا ، ثم الاختلاف بين " الخوارج " وغيرهم ثانيا ، فقد كانت القبائل التى انتشر فيها مذهب " الخوارج " من القبائل الربيعية ، لا من القبائل المضرية .

وقد كان النزاع بين الربيعيين والمضريين معروفا فى العصر الجاهلى وبظهور الإسلام اختفى هذا المظهر حتى ظهر فى فرقة " الخوارج " .[1]

ولا يعنى هذا أن العصبية قد عادت كما كانت فى الجاهلية قبل الإسلام ، فلا جدال فى أن الإسلام قد قضى على الجاهلية العصبية ، وعَفّى على آثارها ، لكن بعضا من آثارها كان مستترا تحت الرماد ، كلما حانت الفرصة ثار دخانه ، وعلا غباره . ولكن بصورة خفية أو مستترة وراء أسباب أخرى ظاهرة . وإن لم يكن السبب الرئيسى يخفى على ذى العين البصيرة .

---

(١) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٣

ثانيا: العوامل الخارجية وتتمثل فى أمور كثيرة أهمها :

١ – مجاورة المسلمين لكثير من أهل الديانات القديمة ودخول بعضهم فى الإسلام .

فعندما اختلط المسلمون بغيرهم فى البلاد المفتوحة ، وكان هؤلاء أصحاب ديانات ونحل مختلفة من يهود ونصارى ومجوس وبراهمة وغيرها أظهروا آراء دياناتهم القديمة فى مظهر جديد وهو الدين الإسلامى . وأثاروا بين المسلمين ما كان يثار فى دياناتهم من الكلام فى الجبر والاختيار وصفات الله إلى آخره .

ولقد كان من هؤلاء الذين دخلوا الإسلام مَنْ هو حسن النية ، ومنهم من كان يصدر منه ذلك عن سوء نية وخبث طوية ومن هؤلاء عبد الله بن سبأ اليهودى الذى ادعى الإسلام وظل على يهوديته واندس بين صفوف المسلمين يبث سمومه ليثير الفتن بين المسلمين .

وكلنا يعرف دوره الخبيث عندما بدأ بالتظاهر بحب الإمام على – كرم الله وجهه – بدعوى أنه أحق بخلافة الرسول – صلى الله عليه وسلم – من سواه ، وأن من تولى غيره الخلافة ظلما وعدوانا ، ولم يكتف بذلك بل غالى فى حبه حتى زعم أن الله حل فيه والعياذ بالله ، وطعن فى خلافة سيدنا عثمان – رضى الله عنه – وألب الثوار على قتله .

ولقد دونت – هذه الأحداث التى كان لها أكبر الأثر فى افتراق المسلمين وبث الخلاف بينهم – كتب التاريخ والفرق .

فقد ذكر ابن حزم السبب فى خروج كثير من هذه الطوائف التى دخلت

الإسلام عندما قال : " والأصل فى أكثر خروج هذه الطوائف عن ديانة الإسلام أن الفرس كانوا من سعة الملك ، وعلو اليد على جميع الأمم وجلاله الخطير فى أنفسهم حتى أنهم كانوا يسمون أنفسهم الأحرار والأبناء وكانوا يعدون سائر الناس عبيدا لهم ، فلما امتحنوا بزوال الدولة عنهم على أيدى العرب ، وكانت العرب أقل الأمم عند الفرس خطرا تعاظمهم الأمر وتضاعفت لديهم المصيبة ، وراموا كيد الإسلام بالمحاربة فى أوقات شتى ، ففى كل ذلك يظهر الله - سبحانه وتعالى - الحق ... فاظهر قوم منهم الإسلام واستمالوا أهل التشيع بإظهار محبة أهل بيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - واستشناع ظلم على - رضى الله عنه - ثم سلكوا بهم مسالك شتى حتى أخرجوهم عن الإسلام ... " .(1)

وهذا الكلام وإن ورد كمثال على التشيع المنحرف كما فعلت " السبئية " أتباع ابن سبأ ، فإنه ينطبق أيضا على كثير من الطوائف الأخرى ، ففى كل فرقة كان يوجد مَنْ هو على شاكلة هؤلاء " كابن الراوندى " فى المعتزلة والمشبهة والمجسمة فى غيرهم .(2)

ونظرا لدخول هؤلاء فى الإسلام ونشر آرائهم القديمة تشعبت المذاهب واتسعت دائرة الخلاف ، وتعرضت أصول العقيدة لما تخشى مغبته ، فشمر عن ساعد الجد فريق من أئمة المسلمين المخلصين لدينهم للقيام بتصوير أصول الإسلام وعقائده من الكتاب والسنة والاستدلال عليها بالأدلة العقلية والنقلية ، ثم الرد على الشبه الواردة على إظهار زيفها وبطلانها " .(3)

(1) الفصل فى الملل والأهواء والنحل ٢/٩١ .
(2) انظر : تاريخ المذاهب الإسلامية لأبى زهرة ص١٤ .
(3) انظر : التفكير الفلسفى الإسلامى للدكتور سليمان دنيا ص٣٢٧ .

إن المسلمين اضطروا إلى علم الكلام وهذه الصورة من الحوار تبين كيف أنهم اضطروا إليه اضطرارا دفاعا عن دينهم ؟ حيث : " أرسل ملك السند رجلا من السمنية – البوذية – إلى هارون الرشيد ليقول له : إنك رئيس قوم لا ينصفون ، إن كنت على ثقة من دينك فوجه إلى من أناظره ، فإن كان الحق معك اتبعناك وإن كان معي اتبعتني ، فأرسل إليه الرشيد محدثا ، فلما وصل إلى الهند أكرمه الملك وأتى بعالم سمني ليناظره ، فسأله : أخبرني عن معبودك هل هو قادر على كل شئ ؟ فأجاب المحدث : نعم ، فسأله السمني : أهو قادر على أن يخلق مثله ؟ فقال المحدث : هذه مسألة من علم الكلام وهو بدعة وأصحابنا ينكرونه فصرفه الملك ، وأرسل إلى الرشيد بالأمر فاستاء وغضب وقال : أليس لهذا الدين من يناضل عنه ؟ فقال أحد رجال حاشيته : بلى يا أمير المؤمنين هم الذين نهيتهم عن الجدال ، والذين أودعتهم السجون ، فأطلق الرشيد سراحهم لينتشروا في الأرض دفاعا عن الإسلام " .(١)

بذا نشأ علم الكلام وتحددت موضوعاته نتيجة خلاف عقائد الإسلام مع المعتقدات الأخرى . فقد كان الصراع الفكرى بين المسلمين ومن خالفهم أولا ، ثم بين الفرق الإسلامية بعضهم مع بعض هو العامل فى نشأة هذا العلم بل فى تحديد موضوعاته ، فانبثقت مشكلة " كلام الله " – على سبيل المثال – هل هو مخلوق أم غير مخلوق ؟ أم حدث نتيجة اختلاف الإسلام مع المسيحية حول دلالة " الكلمة " فى وصف السيد المسيح – عليه السلام – .

٢ – ظهور الترجمة :

لقد كان للكتب الفلسفية المترجمة أثر واضح فى الخلاف بين المسلمين ، حيث

(١) فى علم الكلام الدكتور أحمد صبحى ١٦/١

كثرت الترجمة فى العصر العباسى خاصة فى عهد المأمون والأمين عن التراث اليونانى ، وعكف على هذه الترجمات طائفة من المسلمين بالدراسة والاقتباس .

وقد اضطر المتكلمون إلى دراسة الفلسفة اليونانية والمنطق كى يتسلحوا بنفس أسلحة الخصم .

يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى : لقد " ظهرت حاجة المسلمين منذ أواخر العصر الأموى إلى الاطلاع على المنطق اليونانى للاستعانة به فى الرد على اليهود والنصارى الذين كانت ثقافتهم فلسفية يونانية ، فكان ذلك كله من الاسباب التى دعت إلى وجود علم الكلام ، باعتباره العلم المدافع عن العقائد الإسلامية بالحجج العقلية " .(1)

كما كانت مسألة الخلافة مصدر نزاع وخلاف بين المسلمين وكان من أثر ذلك ظهور الفرق الثلاث وهى :

١ – الشيعة : وهم يرون أن الخلافة بعد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – هى من حق على – كرم الله وجهه – ، ثم سلالته من بعده ، على النظام الذى اتبعوه فعلا فى اختيار أئمتهم .

٢ – الخوارج : ويرون أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين .

٣ – المرجئة : وهؤلاء أرجأوا الحكم فى شأن المتنازعين لله – تعالى – وكرهوا الخلاف الذى نشأ بينهما .

وعندما انتهى المسلمون من الفتح الإسلامى ظهرت أفكار كثيرة مجافية للصواب من أصحاب الديانات والنحل المختلفة التى دخلت الإسلام .

---

(1) علم الكلام وبعض مشكلاته ص٢٢ .

هذا وقد كان العراق وخصوصا البصرة مسرحا لجميع الملل والنحل

فبينما كانت فرقة القدرية تقول بحرية الإرادة وكان أكبر دعاتها بالعراق معبد الجهنى وببلاد الشام غيلان الدمشقى . ظهرت فرقة أخرى وهى الجبرية تسلب إرادة الإنسان وكان أكبر دعاتها الجهم بن صفوان* .

فى وسط هذه الاضطرابات الفكرية والمبادئ التى كونتها كل فرقة لها هيأ الله للمسلمين جماعة من المخلصين يشرحون عقائد الدين كما وردت فى الكتاب والسنة من أشهرهم الحسن البصرى والإمام أبو حنيفة وأتباعه .

وفى أواخر القرن الثالث الهجرى ظهر أبو منصور الماتريدى واشتغل بالرد على أصحاب العقائد الهدامة الباطلة وتكونت على يديه فرقة الماتريدية .

وفى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع ظهر الإمام الطحاوى وأبو الحسن الأشعرى الذى أعلن انفصاله عن المعتزلة ووضع مبادئ فرقته وإليه تنتمى فرقة الأشاعرة .

كما ظهر بعد ذلك الإمام الجوينى والإمام الغزالى والفخر الرازى والإيجى والبيضاوى والتفتازانى وغيرهم من العلماء .

٢ - استخدام الفلسفة :

لقد هبت المعتزلة جاعلة همها وشغلها الشاغل الدفاع عن الدين والرد على المخالفين باستخدام الطرق العقلية والبراهين النظرية ، حيث كانت البلاد الإسلامية

---

* يقال إن الجهم بن صفوان تلقى هذه الفكرة عن الجعد بن درهم ، وأن الجعد هذا أخذها عن أبان بن سمعان ، وأنه تلقاها عن طالوت بن أعصم اليهودى الذى كان معاصرا للنبى - عليه الصلاة والسلام -

فى هذه الحقبة مسرحا لكثير من الآراء والديانات والنحل . وكان كل فريق يحاول بيان وجهة نظره وإبطال رأى الخصوم

ومن هنا تسلحت اليهودية والمسيحية بالفلسفة فدرسها المعتزلة ليستطيعوا الدفاع والرد بنفس السلاح المستخدم من قبل الخصم .[1]

ولقد ظل هذا العلم فى دائرة البدع عند السلف بأساليبه ومصطلحاته . وهذا يعنى أن نقد السلف لعلم الكلام لم يصدر عن انتقادهم المنهج العقلى ، لكنهم - أى السلف - كانوا يفعلون المقاييس الشرعية وهى عقلية أيضا . ومعنى هذا أنهم كانوا أهل نظر ودراية بالإضافة إلى كونهم علماء أثر ورواية[2]

(١) انظر تاريخ المذاهب الإسلامية ص١٤ وما بعدها ، وتاريخ الفلسفة العربية لحنا الفاخورى وخليل الجر ١٧٣/١

(٢) انظر مجموع الفتاوى لابن تيمية ٢٠٦/٢ وما بعدها

ثانيا : تطور علم الكلام :

لقد ظل علم الكلام نبتا لم يتكامل نموه وبناء لم يتشامخ علوه وإن كانت له بعض الإشارات التى بدأت مع بداية عصر الصحابة - رضوان الله - تعالى - عليهم - . وقد بدأ ظهور علم الكلام على أيدى المعتزلة . لكنه لم يصبح علما له أصوله وقواعده وكتبه ومصنفاته إلا فى عهد الدولة العباسية* شأنه شأن غيره من العلوم التى لم يصنف لها** فى عهد الرسول - صلى الله عليه وسلم - أو عهد الخلفاء الراشدين من بعده .

يذكر طاش كبرى زادة أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدى المعتزلة والقدرية فى حدود المائة من الهجرة .. لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء ، وكانت ولادته فى سنة ثمانين للهجرة ووفاته سنة إحدى وثلاثين ومائة ، فيصير زمان طلبه للعلم وقدرته على الاجتهاد قد بدأ فى حوالى المائة تقريبا .(١)

---

* يؤكد ذلك ما ذهب إليه الشهرستانى حيث قال : " وأما رونق علم الكلام فابتداؤه من الخلفاء العباسيين : هارون والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل " .
انظر : الملل والنحل ٣٧/١ تخريج فتح الله بدران .

** السبب فى ذلك يرجع إلى انشغال المسلمين بتثبيت دعوتهم ودفاعهم عنها ضد أعدائها المتربصين بها هنا وهناك ، فلم تتح لهم فرصة الكتابة والتصنيف آنذاك فلقد شغلهم السيف عن القلم . وعندما استقرت الأمور واتسعت دائرة الدولة الإسلامية وأصبح للسيف رجاله المرابطون فى الثغور وللقلم والفكر رجاله الباحثون المتأملون . وترجمت الفلسفات الأجنبية إلى اللغة العربية واحتك العرب بغيرهم من الشعوب الأخرى ذوات الفلسفات والنحل المختلفة وكثرت المسائل العقدية التى دار حولها جدل وتشعبت فيها الآراء ، كما واجه المسلمون فى الأمصار التى فتحوها قضايا عقدية وفقهية لم يكن لهم بها عهد فى عصر الرسول - صلى الله عليه وسلم - وكان للاجتهاد مكانته فى معالجة مثل هذه القضايا . وألفت الكتب وصنفت التصانيف فى كل فن من الفنون .
وكان لعلم الكلام مكانته السامية بين العلوم فى هذا الميدان فهو علم الدفاع عن العقيدة الحقة فى وقت حاول الطاعنون أن ينالوا من العقيدة كما تشعبت آراء المسلمين أنفسهم فى بعض مسائلها .
انظر : العقيدة فى ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبده ص٤١ وما بعدها .

(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

هذا ولقد مر علم الكلام بدورين هما :

الدور الأول : لم تختلط فيه مسائل العقيدة وقضاياها بالفلسفة ، وكان النزاع فيها قاصرا على المتكلمين مع بعضهم البعض وكان أكثره بين المعتزلة وأهل السنة والجماعة .

وكان أول من ألف في علم الكلام هو " واصل بن عطاء " مؤسس فرقة المعتزلة وله " كتاب المنزلة بين المنزلتين " و" كتاب الفتيا " و" كتاب التوحيد " .

ولقد حددت مؤلفات ابن عطاء المعالم الفكرية والأصول العامة لفرقة المعتزلة فلقد أنجز قبل أن يبلغ الثلاثين من عمره ردود المعتزلة على الفرق الأخرى : الخوارج ، الجبرية ، والمرجئة ، والشيعة والمانوية .[1]

وقد كان ذلك في أوائل القرن الثاني الهجري حيث توفي واصل بن عطاء عام ١٣١هـ .

ثم تبعه عمرو بن عبيد المتكلم المعتزلي المتوفى عام ١٤٢هـ فقد ذكروا له كتابا في الرد على القدرية . وبعض متكلمي الشيعة مثل هشام بن الحكم وله كتب في الإمامة في الرد على المعتزلة .

وقريبا من هذا العهد ألف الإمام أبو حنيفة المتوفى ١٥٠هـ " كتاب الفقه الأكبر " و" كتاب العالم والمتعلم " . وفي هذين الكتابين صرح بالكثير من مباحث علم الكلام .

كما نسب للإمام الشافعي كتاب باسم " الفقه الأكبر " .

---

(١) انظر : تيارات الفكر الإسلامي للدكتور محمد عمارة ص٤٦

وفى القرن الثالث الهجرى ألف أبو منصور الماتريدى المتوفى سنة ٣٣٣هـ " كتاب التوحيد " و" كتاب المقالات " و" كتاب أوهام المعتزلة " ردا على أصحاب المقالات الباطلة .

ولما فى المذهب الاعتزالى من مظاهر البحث العقلى والاعتماد على أساليب المنطق والجدل ، مالت إليه الطباع وكثر أنصاره ، وأصبح هو المذهب السائد من بين المذاهب الكلامية .

يذكر طاش كبرى زادة أن مبدأ شيوع الكلام كان بأيدى المعتزلة والقدرية فى حدود المائة من الهجرة ، وقد ثبت فى التواريخ الصحاح أن إحياء طريقة السنة والجماعة كان فى حدود الثلاثمائة من الهجرة ، لأن ظهور الاعتزال كان من جهة واصل بن عطاء ، وكانت ولادته فى سنة ثمانين للهجرة ووفاته فى إحدى وثلاثين ومائة ، فيصير زمان طلبه العلم وقدرته على الاجتهاد قد بدأ فى حوالى المائة تقريبا ، وظهر أيضا مذهب أهل السنة والجماعة بالسعى الجميل والإقدام المشهور من جهة أبى الحسن الأشعرى فى حدود الثلاثمائة ، إذ كانت ولادته سنة ستين ومائتين ، ودام على الاعتزال أربعين سنة ، فيكون علم الكلام بأيدى المعتزلة مائتى سنة ما بين المائة والثلاثمائة .(١)

ثم ألف أبو الحسن الأشعرى كتبا كثيرة فى هذا المجال منها " كتاب الإبانة عن أصول الديانة " و" كتاب الشرح والتفصيل فى الرد على أهل الإفك والتضليل " و" التبيين على أصول الدين " و" مقالات الإسلاميين " .

وقد كان الأشعرى فى كتبه يعتمد فى نصرة العقائد على مذهب السلف

(١) انظر : مفتاح السعادة ١٦٦/٢ وما بعدها .

بالأدلة العقلية ، وكان منهجه فى مجادلة المخالفين وخصوصا المعتزلة على النقل والعقل .

يقول طاش كبرى زادة : " ودفع الكتب التى ألفها على مذاهب أهل السنة ، وكانت المعتزلة قبل ذلك قد رفعوا رءوسهم فجرهم الأشعرى حتى دخلوا فى أقماع السمسم " .(١)

ولقد استخدم الأشعرى فى محاربة المعتزلة نفس المنهج الذى استخدموه وهو النظر العقلى مما كان له أكبر الأثر فى إضعاف مذهبهم وإذلال طغيانه ، إلا أن سلطان السياسة كان له أثر كبير فيما ناله المذهب المعتزلى من القوة والسيادة أولا ، كما كان له أيضا أثر فى نزوله عن عرشه مرة أخرى .(٢)

وإليك صورة من الصور التى نقلها المؤرخون من جدل الأشعرى مع أبى على الجبائى أحد أئمة المعتزلة المتوفى عام ٣٠٢هـ تمثل روح مذهبه واتساق معلوماته وسعة أفقه . هذا مع العلم بأن الجبائى كان أستاذا للأشعرى قبل أن يترك الأشعرى الاتجاه المعتزلى .

تناظر الأشعرى مع الجبائى يوما وسأله عن ثلاثة إخوة ماتوا : الأكبر منهم مؤمن بر تقى ، والأوسط كافر شقى ، والأصغر مات على الصغر ولم يبلغ الحلم .

فقال الجبائى : أما الزاهد ويقصد به الأكبر ففى أعلى الدرجات ، وأما الكافر - الأوسط - ففى أسفل الدرجات : بناء على أن ثواب المطيع وعقاب العاصى واجبان على الله - تعالى - عند المعتزلة .

(١) مفتاح السعادة ١٥٢/٢ .
(٢) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية للدكتور مصطفى عبد الرازق ص٢٩٠ .

وأما الصغير فمن أهل السلامة لا يثاب ولا يعاقب .

فقال الأشعري : إن طلب الصغير درجات أخيه الأكبر في الجنة ؟

فقال الجبائي : يقول الله – تعالى – : الدرجات ثمرة الطاعات .

قال الأشعري : فإن قال الصغير : ليس مني النقص والتقصير فإنك إن أبقيتني إلى أن أكبر لأطعتك ودخلت الجنة .

قال الجبائي : يقول الباري – تعالى – قد كنت أعلم منك أنك لو بقيت لعصيت ودخلت العذاب الأليم في دركات الجحيم ، فإن الأصلح لك أن تموت صغيرا .

فقال الأشعري : إن قال العاصي المقيم في العذاب الأليم مناديا من بين دركات النار وأطباق الجحيم : يا إله العالمين ، يا أرحم الراحمين ، لم راعيت مصلحة أخي دوني وأنت تعلم أن الأصلح لي أن أموت صغيرا ولا أصير في السعير أسيرا ، فماذا يقول الرب ؟

فبهت الجبائي وانقطع عن الجدال .[1]

من خلال هذه المناظرة نقف على قيمة المنهج العقلي في الاستدلال .

وعلى نفس الدرب سار القاضي الباقلاني فكتب في المقدمات العقلية التي تتوقف عليها أدلة الأشعري مثل إثبات الجوهر الفرد ، وأن العرض لا يقوم بالعرض ، وأن العرض لا يبقى زمانين ، وأن بطلان الدليل يؤذن ببطلان المدلول .

ومن بعد الباقلاني جاء إمام الحرمين أبو المعالي الجويني فألف كتابه " الشامل " ثم لخصه في كتاب " الإرشاد " .

(١) انظر مفتاح السعادة ١٦٦/٢ .

وهكذا نجد أن أتباع الأشعرى لم يستخدموا شيئا من المنطق ؛ لأنه كان فى نظرهم جزءا من الفلسفة التى كانوا يتحرجون منها رغم استعمالهم لتلك المقدمات العقلية وسميت هذه طريقة المتقدمين وترأس هذه الطريقة الباقلانى وإمام الحرمين .

وقد جاء من بعدهم الإمام الغزالى والفخر الرازى لكنهما خالفا منهج الباقلانى فيما قرره . وقررا أن بطلان الدليل لا يؤذن ببطلان المدلول ، لأنه قد يثبت بدليل واحد أو بجملة أدلة قد يظهر بطلانها . وسميت هذه الطريقة طريقة المتأخرين .(1)

هذا هو الدور الأول الذى لم تحتك فيه مسائل العقيدة بمشاكل الفلسفة ، ولم تختلط بها قضايا علم الكلام ، وقد كان النزاع بين الفرق الإسلامية بعضها مع بعض وخصوصا المعتزلة وأهل السنة .

الدور الثانى : لم يدم الأمر على ما كان عليه فى الدور الأول فقد جدت مستحدثات على البيئة الإسلامية غيرت النهج الأول حيث ترجمت الفلسفة اليونانية إلى اللغة العربية وتخصص فيها الفلاسفة الإسلاميون كالكندى والفارابى وابن سينا .

وقام هؤلاء الفلاسفة بشرح الدين على ضوء الفلسفة ، كما حاولوا التوفيق بين الدين والفلسفة رغم ما بينهما من تنافر . ولقد كان عملهم هذا دافعا لكثير من المتكلمين للرد عليهم وكان على رأسهم الغزالى حيث ألف " مقاصد الفلاسفة " ثم كتب للرد عليهم " تهافت الفلاسفة " .

ولقد استعرض الغزالى ومن سار على دربه من المتكلمين المبادئ التى ذكرها

(1) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٩٤ .

الفلاسفة مما يتصل بالإلهيات وتحاملوا عليها وبالغوا فى نقدها والرد عليها مما حدا بهم إلى خلط علم الكلام بالفلسفة .

ومن أشهر الكتب التى ألفت على هذه الطريقة " طوالع الأنوار " للبيضاوى و" المواقف " لعضد الدين الإيجى و" المقاصد " لسعد الدين التفتازانى .

يقول ابن خلدون : " ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يتميز أحد الفنين من الآخر ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم " .(١)

ولم يقتصر الخلط بين الفلسفة وعلم الكلام فى هذه الكتب وأمثالها على مجرد حشو المسائل بعضها ببعض ، بل إن هذا الخلط قد تعدى إلى المنهج والموضوع فأصبحت الكتب الكلامية تصدر بالحديث عن المنطق والطبيعيات ثم الإلهيات . وكان هذا هو المنهج السائد ، أما بالنسبة للموضوع فقد تغير وأصبح هو الحديث عن الموجود أو المعلوم من حيث كونه متعلقا بإثبات العقائد الدينية .

يقول الدكتور عبد المعطى بيومى فى هذا الصدد : " فالمنهج فى هذه الكتب ، أصبح غير المنهج الذى كان متبعا فى الكتب الكلامية من قبل ، إذ أخذ أصحاب هذه الطريقة يرتبون كتبهم الكلامية كما ترتب الكتب الفلسفية عادة ، فيبدأون بالحديث عن المنطق والطبيعيات ، ثم يتحدثون فى الإلهيات ويطيلون فى ذكر المسائل الفلسفية والرد عليها .

وإذا كان المنهج قد تغير بهذا الشكل وشملت هذه الكتب موضوعات أخرى مع موضوعات علم الكلام ، فلم يكن بد من تغير الموضوع ذاته فبعد أن كان موضوع علم الكلام هو : ذات الله - سبحانه وتعالى - وصفاته ، أصبح الموضوع

---

(١) المقدمة ص٤٣٠ .

فى هذه الكتب هو : الموجود ، أو المعلوم من حيث يتعلق به إثبات العقائد الدينية حتى يشمل هذا الموضوع الجديد المسائل الفلسفية التى زادوها فى كتبهم الكلامية ".[1]

هذا ولقد حمل هذا الموضوع التوسع – فى المؤلفات الكلامية بسبب ذكر المسائل الفلسفية فيها – بعض المؤلفين إلى أن يقوموا بوضع كتب فى العقيدة والمنطق على هيئة منظومات ومتون يراعى فيها الاختصار كلما أمكن .

يقول بعضهم :

من التطويل كلت الهمم فصار فيه الاختصار ملتزما[2]

ولا تزال هذه المختصرات تلقى عناية من الدراسين وبخاصة فى جامعة الأزهر مثل الخريدة ، وأم البراهين ، والسنوسية ، والجوهرة ، والرسالة الشمسية ... الخ .

وقد ترتب على خلط كتب علم الكلام بالمسائل الفلسفية أن قام ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية بنشر عقيدة السلف على طريقة الحنابلة ومقاومة مذهب الأشعرى .[3]

ولقد ظهر اتجاه جديد فى علم الكلام قام على أساس النهضة الحديثة فى الفكر الإسلامى على يد جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده ويتمثل هذا الاتجاه فى الآتى :

١ – عرْض مسائل علم الكلام بطريقة جديدة تختلف عن طريقة القدماء إلى

---

(١) الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب ص ١٥٧ .
(٢) انظر : مقدمة الجوهر للشيخ اللقانى نقلا عن : توضيح العقائد النسفية ٢١/١ .
(٣) انظر : تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية ص٢٩٤ .

حد كبير . وهذا يتضح فيما قام به جمال الدين الأفغانى فى كتابه " الرد على الدهريين " حيث رد فى هذا الكتاب على الماديين مبينا أثر الدين فى المجتمعات الإنسانية وأثر المادية فيها كما أوضح أن الدين ضرورى بصفة عامة والدين الإسلامى بصفة خاصة .

ويمثل هذا الإتجاه الآن " وحيد الدين خان " فى أشهر كتبه الكلامية الحديثة " الإسلام يتحدى " .(١)

٢ – تناول علم الكلام بعيدا عن الخلافات بين المتكلمين والمشاكل الفلسفية التى خلطت بها فى القرون السادس والسابع والثامن ، وذلك مثلما فعل "محمد عبده " فى " رسالة التوحيد " حيث أخذ ما اتفق عليه الجميع ووفق بينهم فيما اختلفوا فيه .

يقول محمد عبده : " بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط إخْوَة تفرقت بهم الطرق فى السير إلى مقصد واحد ، ثم التقوا فى غسق الليل فصاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر ، فظن كلٌّ أن الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده فاستحر* بينهم القتال ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جُلّهم دون المطلب ، ولما أسفر الصبح وتعارفت الوجوه ، رجع الرشد إلى من بقى وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أمّلوا ولو افتهم الغاية إخوانا بنور الحق مهتدين ...

فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنردُّ إلى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه " .(٢)

---

(١) انظر : الفلسفة الإسلامية من المشرق إلى المغرب للدكتور عبد المعطى بيومى ص ١٥٨ .
* استحر : أى اشتد .
(٢) رسالة التوحيد ص٤٢ .

هـذا وبعـد أن انتـهينـا من الحـديث عن مبادئ علـم الكلام ونشـــأته وتطـوره ، ســـوف نتـــحـــدث عـن الإلهـــيـــات والصفـات .



الإلهيات

تمهيد:

اتفق علماء التوحيد على إطلاق «الإلهيات» على كل ما يتصل بذات الله – سبحانه وتعالى – مما يجب له – سبحانه – من صفات الكمال، وما يستحيل بالنسبة إليه – سبحانه – وما يجوز فى حقه – تعالى –.

يقول البيجورى : إن موضوع علم التوحيد هو «ذات الله – تعالى – من حيث ما يجب له وما يستحيل وما يجوز »[1].

هذا ما جرى عليه علماء الكلام، أو ما جرت عليه الكتابة عن الإلهيات إلا أن لى رأيًا فى هذه القضية مؤداه أن الصفات بالنسبة للحق هى ما وصف بها ذاته والأسماء الحسنى كلها صفات كمال لله – تعالى – واجبة وجوب الإيمان نفسه.

يقابل هذه الصفات – أى صفات الكمال – صفات النقص وهى منفية عن الحق – تبارك وتعالى – واعتقاد نفيها واجب وجوب الإيمان أيضا. وصفات الله – تبارك وتعالى – الواجب ثبوتها له، وكذا الصفات الواجب نفيها عنه – سبحانه وتعالى – مأخوذ فى اعتبارها الإطلاق أو اللامحدودية. فنحن نثبت لله – تبارك وتعالى – ما نثبت بلا حدود، وننفى عن الله – تعالى – ما ننفى بلا حدود، وعلى ذلك فليس هناك وسط.

وأما ما يقال من أن الحق – تبارك وتعالى – يجوز فى حقه فكل ما هو داخل تحت باب الجواز فهذا مردود إلى بعض صفاته الواجبة وهى الإرادة والقدرة، وعلى ذلك فإننى أرى أن الصفات

---

(١) تحفة المريد على جوهرة التوحيد ص ١٤.

بالنسبة لله – تبارك وتعالى – تدور بين أمرين اثنين لا ثالث لهما؛ إما صفة كمال فتكون واجبة الثبوت لله – تعالى – ، وإما صفة نقص فتكون واجبة السلب. والنفى عنه – سبحانه- إلا أن هناك حقائق يجب أن ننبه إليها ابتداء كمدخل لمعالجة موضوعاتنا فى نقاء ووضوح.

الحقيقة الأولى: أن ذات الله – تعالى – لا تدرك لا علما ولا وهما، وهذه الحقيقة ثابتة حتى عند المشركين والصنميين والوثنيين، فعباد الأصنام لا يدركون حقيقة ما يعبدون. فهم يعبدون القوة أو السر الذى يحل فى هذه الأحجار أو الأصنام وهذه القوة الخفية لا يستطيعون إدراكها، وعلى ذلك فالإنسان بفطرته حتى «ولو انحرفت هذه الفطرة وشوهت بفعل الشيطان» يقف عند حد معين، وهو العلم بأنه لا يمكن إدراك حقيقة الذات. وبناء على هذا فإن أصحاب الديانات فى جملتهم مهما ضلوا لا يبحثون فى حقيقة الذات الإلهية.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: «فاعلم أن كلمات الباحثين فى نفسيات المتدينين وعقلياتهم قد تطابقت على أنه ليس هناك دين أيًّا كانت منزلته من الضلال والخرافة، وقف عند ظاهر الحس، واتخذ المادة المشاهدة معبودة لذاتها، وأنه ليس أحد من عُبّاد الأصنام والأوثان كان هدف عبادته فى الحقيقة هياكلها الملموسة، ولا رأى فى مادتها من العظمة الذاتية ما يستوجب لها منه هذا التبجيل والتكريم. وكل أمرهم هو أنهم كانوا يزعمون هذه الأشياء مهبطا لقوة غيبية، أو

رمزا لسر غامض، يستوجب منهم هذا التقديس البليغ»[1].

الحقيقة الثانية: أن حقيقة صفاته – تعالى – لا تدرك وإنما تدرك أسماؤها.

وقد نبهت إلى هاتين الحقيقتين ابتداء، حتى لا نُشغل بهما أثناء متابعة الموضوع.

ومما يجب التنبيه إليه هنا أن هاتين الحقيقتين تعتبران بدهيتين لدى المؤمنين فلا حاجة بنا إلى التدليل عليهما.

ويتبادر إلى الذهن هنا تساؤلات وهو كيف نعرف الله – تبارك وتعالى – ونؤمن به إيمانا يقينا ويشعر المؤمن شعورا جازما يقينيا أنه على معرفة حقة بالله وعلى يقين بالله وثيق؟ كيف يحدث هنا مع أننا لا نعرف حقيقة الذات ولا حقيقة الصفات؟

وللإجابة على هذا التساؤل نقول: نعرف الحق – تبارك وتعالى – من آثار صفاته. فلقد سأل سيدنا إبراهيم خليل الله – عليه السلام – ربه – سبحانه- أن يطلعه على سر الإحياء، ولكن الله – تعالى- لم يطلع إبراهيم – عليه السلام- إلا على أثر من آثار صفة القدرة. وظل سر الصفة أو حقيقة الصفة علما من علم الله – تعالى – الذى لا يطلع عليه سواه.

يقول – تعالى – : **﴿وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن**

(١) الدين ص٣٨، مشكلة الألوهية للدكتور محمد غلاب ص٢٧ وما بعدها.

جزءا ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[1].

على أننا نلاحظ أن هناك تشابها من حيث الأسماء بين بعض صفات الله – سبحانه وتعالى – وبعض صفات خلقه. فمن صفاته – سبحانه وتعالى – الحياة والعلم والسمع والبصر من خلقه من يتصف بصفات لها نفس هذه الأسماء.

وإذا كان قد سبق تقرير أن حقيقة صفات الله – تبارك وتعالى – لا تدرك. فبدهى ما نستطيع تقريره هنا من أن التشابه بين صفات الله – تبارك وتعالى – وصفات خلقه إنما هو فى أسماء الصفات فقط وفيما يقع على هذه وتلك من أحرف وكلمات. وأما صفات البشر فهى قوى لاحقة بأجساده، وأجساد البشر محدودة، وكل ما يتصل بها من لواحق الصفات والقوى محدود بطبعه لاستحالة أن يشتمل المحدود على اللامحدود.

فصفات البشر جميعا خاضعة لقوانين الطبيعة ونواميس الكون وهى من خلق الله – تعالى – ومن فعله وكل صفات البشر خاضعة ومحكومة بالقوانين والأسباب والآلات.

فحياة البشر محكومة بالأسباب والآلات إذ لابد من الطعام والشراب فإذا انقطع الطعام والشراب أو أحدهما إلى وقت معين انقطعت الحياة وفنيت. كما أنه لابد من اعتدال الأجهزة التى تعمل، ولابد من الهواء والغذاء المنمى، ولابد من خلو أجهزة الإنسان من الآفات..الخ لئلا يهلك.

فهل هذا ينطبق على الله – سبحانه وتعالى – ؟ كلا.

---

(١) الآية [٢٦٠] من سورة البقرة.

وهذه الآلات التى يعمل بها الجسم ليست من فعل الطبيعة كما يقول الدهريون، وإنما هى من فعل الله – تعالى – وإنما أراد الله – تعالى – أن يلفت الأنظار فخرق القوانين والقواعد فأوجد الصفات فى البشر بدونها لكى يعلم أن الآلات والأسباب إنما هى أمور عادية من فعل الله – سبحانه وتعالى- خاضعة لإرادته وقدرته بحيث إذا أراد الله – تعالى – أن يوجدها من غير تلك الأسباب والقواعد لأوجدها ويدخل فى هذا الباب كل ما نعرف من معجزات وكرامات وإرهاصات أو ما يطلق عليه بصفة عامة خوارق العادات.

المبحث الثالث

مشكلة الصفات



المبحث الثالث
مشكلة الصفات

لقد درج المسلمون فى الصدر الأول للإسلام على التسليم والتفويض بما جاء به القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة فيما يخص الصفات الإلهية وغيرها من المسائل. وكان التوحيد رائدهم والتنزيه هو العقيدة الثابتة التى تحدد فهمهم عقائد الدين، وكانوا يلتزمون عدم الخوض فى تفسير النصوص الواردة فى القرآن الكريم سواء منها ما كان متعلقا بصفة من صفات الحق - سبحانه - أم بمعنى من المعانى. وإذا كانوا يتحرجون من الجرأة على تفسير مثل هذه الألفاظ التى لا تتعلق بصفة من صفات الله - جل وعلا - فإن تحرجهم من التعرض لتفسير النصوص المتعلقة بصفاته - عز وجل - يكون أقوى وآكد - وفيما يلى سوف نأتى بمثالين يوضحان ما سبق.

أولا: مثال لتحرجهم من تفسير نص لا يتعلق بصفة من صفات الله ما روى أن أبا بكر - رضى الله عنه - عندما سُئِلَ عن معنى «الأَبِّ» فى قوله - تعالى -:﴿**وفاكهة وأبا**﴾[1].

فقال: أىّ سماء تظلنى وأى أرض تُقِلّنى إذا قلت فى كتاب الله برأيى[2]؟

---

(١) الآية [٣١] من سورة عبس.

(٢) انظر: تفسير القرطبى ٧٠١٤/٨، ابن كثير ٢١٧/٧.

ثانيا: مثال لتحرجهم من تفسير نص يتعلق بصفة من صفات الله – عز وجل-. ما روى أن رجلا جاء إلى عمر – رضى الله عنه – وجعل يسأل عن معنى قوله – تعالى -: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[1] فأخذ عمر يضربه بعراجين نخل كانت فى يده حتى سال الدم من رأسه ولم يتركه حتى قال قد ذهب ما برأسى يا أمير المؤمنين.

ولكن الذين جاءوا من بعدهم دسوا أنوفهم فى آيات الله، ومالوا إلى تأويل الكلمة المعصومة كتابا وسنة، ومن هؤلاء من وقف عند حد الاعتدال إلى حد ما، ومنهم من أغرق. وقد هيأ الله لهذه الفئة التى مالت إلى التأويل فئة من ملتزمى نهج السلف الصالح، فعارضوهم، وأخذوا على عاتقهم إبطال ذلك الاتجاه المبتدع.

أما الفريق الأول: وهم المؤولة المعطلة «نفاة الصفات» فهم فرقة المعتزلة أتباع واصل بن عطاء، تلميذ الحسن البصرى وقد قام فى مواجهتها فرقة الأشاعرة. أتباع الشيخ أبى الحسن الأشعرى. ومن المعلوم أن هناك فرقا أخرى سوى هاتين الفرقتين لها باع فى هذا المجال تأويلا أو تفويضا. إلا أن الفرقتين اللتين ذكرناهما هما أشهر الفرق فى هذا الباب.

أما المعتزلة. فقد ذهبوا فى جملة مذاهبهم إلى نفى الصفات وفى عبارة «نفى الصفات» هذه تفصيل كبير بين رجالات هذا المذهب. وهم فى نفيهم الصفات لهم مذاهب عديدة

---

(١) الآية [٥] من سورة طه .

كلها تتفق فى نفى الصفات وتعطيلها.

وأشهر هذه المذاهب مذهبان:

الأول: يثبت الصفة ثم يجعلها هى ذاته – تعالى الله عما يقولون علوا كبيرا – وهؤلاء يزعمون أن الله عليم بعلم هو ذاته. سميع بسمع هو ذاته. قادر بقدرة هى ذاته.

الثانى: أكثر وضوحا فى التعبير عن مذهب القوم.

فيقول إن الله عليم بذاته لا بعلم. سميع بذاته لا بسمع. قادر بذاته لا بقدرة.

أدلة المعتزلة على صحة مذهبهم:

للمعتزلة أدلة كثيرة أشهرها دليلان:

الدليل الأول: حرصهم على تنزيه الله – سبحانه وتعالى – وابتعادهم عن التشبيه والتمثيل. فقد ذهبوا إلى أنه فى إثبات الصفات إثبات الشبه. والمثل للحق –سبحانه وتعالى – خاصة وأن هذه الصفات من العلم والقدرة والسمع لها ما يقابلها فى المخلوقات.

الدليل الثانى: حرصهم على توحيد الله – سبحانه وتعالى – ونفى الشريك لله. فقد ذهبوا إلى أن أخص صفات الألوهية «القدم» وفى إثبات قديم سوى الله – سبحانه وتعالى – إشراك بالله – تبارك وتعالى – ويرون أن النصارى قد كفروا بإثبات ثلاثة قدماء ومن باب أولى يكون المثبتون لأكثر من ثلاثة أولى بذلك الوصف وهو الشرك.

ذكر الشهرستانى عن واصل بن عطاء أنه قال: «ومن أثبت

معنى وصفة قديمة فقد أثبت إلهين»[1].

أما الأشاعرة: فقد أثبتوا لله – تعالى – ما أثبت لذاته ونفوا عنه ما نفى عن ذاته. مع ملاحظة أن الصفة غير الذات. وقالوا عن الصفات إنها (لا هى هو ولا هى غيره) أى أن صفاته – سبحانه وتعالى – ليست عين الذات وليست زائدة على الذات بل هى غيره والغيرية المقصودة عندهم هى الغيرة الملازمة لا الغيرية المنفكة فالصفات ملازمة للذات، وغير منفكة عنها. إذ لا يمكن تصور الذات بغير الصفات فلا يمكن تصور العلم مثلا إلا مضافا إلى واجب الوجود بذاته. وهو الله – عز وجل – وكذلك القول فى القدرة والإرادة وما إلى ذلك من الصفات.

فلا يكون الإله إلها إلا إذا كانت الصفات مع الذات بمثابة الجزء من الكل فاليد من محمد لا يقال إنها عينه كما لا يقال إنها غيره أى منفكة عنه. بل هى ملازمة له.

واستدل الأشاعرة على ما ذهبوا إليه بقوله – تعالى -: ﴿**أنزله بعلمه**﴾[2]، وقوله – تعالى -: ﴿**وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه**﴾[3].

فالحق - سبحانه وتعالى – أضاف العلم إلى ذاته. وفى هذا مغايرة فى المفهوم بين المضاف والمضاف إليه أى بين الصفة والموصوف إذ الشىء لا يضاف إلى نفسه.

وترى الأشاعرة أن الصفات الإلهية قديمة قدم الذات

---

(١) الملل والنحل ٥٣/١.

(٢) جزء الآية [١٦٦] من سورة النساء.

(٣) جزء الآية [١١] من سورة فاطر.

مستدلين بما نقله إمام الحرمين عن الأشعرى حيث أورد ما نصه: «من الثابت أن الله عالم قادر، ولابد أن يختلف مفهوم العلم عن مفهوم القدرة وإلا كان عالما بالقدرة قادرا بالعلم ولابد أيضا أن يكون هناك تمايز بين الذات والصفات، وإلا كان تعلقنا للذات متضمنا تعلقنا للصفات لكن الأمر ليس كذلك وإذن فلابد أن يكون مفهوم الذات غير الصفات وأن يكون المفهوم من إحدى الصفات مختلفا عن المفهوم من الصفات الأخرى»[1].

ولنا مع الأشاعرة وقفه حول قولهم عن الصفات إنها (لا هى هو ولا هى غيره) لنرى ما الذى دفعهم إلى التعبير بهذه المقولة؟

إن الذى نراه هو أن ما دفعهم إلى ذلك إلا الخوف من القول بتعدد القدماء كما ذهبت إلى ذلك المعتزلة حين أنكرت الصفات إلا أن تعدد القدماء المؤدى إلى الكفر هو تعدد الذوات القديمة. أما وجود ذات واحدة لها صفات قديمة فلا شىء فيه. وليس تكفير النصارى من جهة إثباتهم صفات قديمة للإله، وإنما بقولهم إن أقنوم العلم انتقل إلى بدن عيسى – عليه السلام – والانتقال من خواص الذوات فكأنهم بذلك قد أثبتوا ذوات قديمة مع الإله ومن ثم كُفِّرتْ النصارى بهذا القول.

(١) الشامل فى أصول الدين للجوينى ص ٦٨ وما بعدها حققه وقدم له الدكتور النشار وآخرون.

أقسام الصفات

جرى علماؤنا على تقسيم الصفات إلى أقسام ثلاثة:

النوع الأول: صفة ذاتية أو نفسية.

النوع الثانى: صفات سلبية.

النوع الثالث: صفات وجودية.

أما النوع الأول: فيقصدون به صفة واحدة هى صفة «الوجود» وقد أطلقوا عليها لفظة «ذاتية أو نفسية» لأنها ليست غير الذات بل هى عين الذات أو نفس الذات. على ما يأتى بيانه عند الحديث عن هذه الصفة.

أما النوع الثانى وهو الصفات السلبية: فهى صفات لا تثبت لله - تعالى - شيئا. ولكنها تسلب عنه - عز وجل - من الصفات ما لا يليق بجلاله - سبحانه - ولذلك سميت سلبية. لأنها لا تثبت لله - تبارك وتعالى - كمالا. بل تسلب عنه - جل وعلا - النقص وما يوهمه. فالصفات السلبية نصف الذات الإلهية بها لا لنثبتها للذات الإلهية، بل لنسلب عنها نقيضها. ولذلك دخل فى تعريفها كلها عبارة «مفهومها سلب نقيضها».

والصفات السلبية التى اجتمعت عليها كلمة علماء التوحيد خمس صفات هى: الوحدانية - القدم - البقاء - القيام بالنفس - المخالفة للحوادث.

وأما النوع الثالث وهو الصفات الوجودية. أو صفات المعانى فكما هو واضح من كونها وجودية أنها صفات كمال تثبت لله - تعالى - الكمالات اللائقة بجلاله - عز وجل.

وواضح من هذا التقسيم. أن صفات الله - تعالى - سوى

الوجود قسمان: قسم ينزه الله – تعالى – عن كل نقص. وقسم يثبت لله – تعالى – كل كمال. وهذا ناتج عن عقيدتنا فى الله – سبحانه وتعالى – التى تقوم على أن الله – تعالى – منزه عن كل نقص. وأنه – تعالى – متصف بكل كمال.

وقد جرى علماؤنا – رضوان الله عليهم – أن يقدموا الحديث عن صفات السلب، ثم يكملوا بصفات الإثبات.

كما جرت عادة علماء الكلام أن يركزوا فى حديثهم عن الإلهيات على صفات الله – تعالى – وذلك حق. فإن ذات الله – تعالى – لا تدرك حقيقتها. ولا يمكن أن تكون محل بحث أو دراسة. إذ ذاته – تعالى – أجل وأقدس وأسمى من أن يحيط بها عقل. لا عن علم ولا عن وهم. لذا كان الحديث عن الذات الإلهية منحصرا فى الحديث عن الصفات التى يتصف بها الله – سبحانه وتعالى – وفيما يلى نلقى الضوء على كل من هذه الصفات:

أولا: صفة الوجود:

إن الحديث عن صفة الوجود يتناول نواحى كثيرة أهمها:

١- بيان المراد بتلك الصفة.

٢- أنواع الوجود.

٣- منزلة الكلام عن هذه الصفة بالنسبة للصفات الأخرى.

٤- مناهج الباحثين فى الاستدلال على ثبوت الصفة لله –تعالى–.

٥- المنهج المختار.

وقبل الحديث عن صفة الوجود نرى لزاما علينا أن نتحدث عن الصفة ومعناها فنقول: لقد عرف المتكلمون الصفة بتعريفين:

الأول: أن الصفة هى المعنى الوجودى القائم بالموصوف.

والثانى: أن الصفة هى ما ليس بذات وجوديا كان كصفات المعانى أم عدميا كصفات السلب والتعريف الثانى هو المعول عليه، لأنه هو الذى يشتمل على جميع أقسام الصفات حيث يشمل صفات المعانى، كما يشتمل على صفات السلب بخلاف التعريف الأول فإنه يقتصر على صفات المعانى وحدها[1].

صفة الوجود

المراد بصفة الوجود وجود الله – تعالى –.

ووجود الله – تبارك وتعالى – ثابت فى ذاته سواء عرفه الخلق أم لم يعرفوه. أقروا به أم أنكروه. والمعروف أن الوجود أنواع ثلاثة:

١- وجود فى الأعيان: وهو وجود الشىء فى الواقع. وهذا لا يؤثر سواء أقروا به أم لم يقروا.

٢- وجود فى الأذهان: وهو إدراك الحقيقة الموجودة فى الأعيان. وأحيانا يتطابق الوجود فى الأذهان مع الوجود فى الأعيان كاعتقاد المسلمين أن الله حق، وأحيانا لا يتطابق معه كاعتقاد عباد الأصنام.

٣- وجود فى اللسان: وهو الأسلوب الذى نعبر به عن الحقيقة التى نشعر بها.

وقد اتفق علماء التوحيد أن يبدأوا كلامهم عن الصفات الإلهية بالكلام عن صفة «الوجود» وذلك أمر طبعى فإن صفة

(١) انظر: العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبده ص١٥١.

الوجـود بمعنى إثبات أن الله – تعالى – موجود يسبق الكلام على أى صـفة من الصفات الأخرى. لأن إثبات الوجود للذات العلية هـو المسـوغ للحديث عـن بقـية الصفات. إذ إن صفة الوجود بالنسـبة للـذات الإلهـية هى الصفة الأم التى يتوقف على ثبوتها ثبوت بقية الصفات للذات الإلهية. فإذا لم تثبت هذه الصفة فمن بـاب أولى عـدم الصـفات الأخـرى أيضـا إذا مـا لحقهـا نـوع من الـنقص فـإن ذلك النقص ينعكس على ماعداها من الصفات. لـذا كـان الحديـث عـن صـفة الوجـود يسـبق دائما الحديث عن الصفات الأخرى لله – سبحانه وتعالى –.

وصـفة الوجود بالنسبة للذات الإلهية صفة ذاتية وبالنسبة لكافة الموجودات سوى الله – تعالى – صفة غيرية بمعنى أنها غير ذواتهـا فهى لم تلحق الموجودات لذواتها. بل لحقتها لسبب خارج عـن تلك الذوات فاعل فيها، وذلك الوجود الذى لحق الموجودات هو أثر فعله فهى – إذن – موجودة بفعل غيرها. لذلك صح أن يقـال إنهـا موجـودة لغيرهـا أو مـن غيرها. ودليل ذلك أن تلك الموجـودات لم تكن ثم كانت أى أنها كانت قبل وجودها معدومة فأضـيف لها الوجود فوجدت ثم يسلب عنها الوجود فتفنى، ولو كان الوجود يلحقها لذاوتها لما قبلت العدم سابقا أو لاحقا لأن ما بـالذات لا يـتخلف. فـالوجود بالنسـبة لـلحق – سبحانه – عين الـذات. لذلـك يسـتحيل أن يسلب عنها لأنه - أصلا – لم يضف إلـيها، ومـن ثـم فقد امتنع أن تتصف بالفناء أو العدم سابقا أو لاحقا.

أمـا الوجود بالنسبة للحق – سبحانه وتعالى – فليس شيئا زائـدا على الذات أو غيرها، بل هو عين الذات. فهو صفة ذاتية وليسـت غيريـة كمـا فـى سـائر الموجـودات. ولـذا عرفت صفة الوجـود بأنها: صفة نفسية ثبوتية يدل الوصف بها على نفس الذات دون معنى زائد على الذات[1].

وصفة الوجود ليست خاصة بدين أو عقيدة بعينها بل هى مـن مسـلمات العقـل والفطرة لدى المتدينين جميعا فوجوده – سـبحانه وتعالى – من المسلمات لدى العقلاء جميعا لذلك لم يُعْنَ الشرع الشريف قرآنا وسنة بإثبات الأدلة على وجود الله – تعالى – لأن وجـوده – سـبحانه وتعـالى – قضـية فطرية بدهية غير قابلة للمعارضة.

قـال – تعـالى –: ﴿أفى الله شك فاطر السموات والأرض﴾[2] وقـال – تعـالى –: ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[3].

وقـال – تعـالى –: ﴿ألـم تـر أن الله يسـبح لـه من فى السموات والأرض والطير صافات كل قد علم صلاته وتسبيحه والله عليم بما يفعلون﴾[4].

---

(١) انظر: محاضرات فى مقارنة الأديان للدكتور محمود مزروعة ص ٣١.
(٢) جزء الآية [١٠] من سورة إبراهيم.
(٣) الآيتان [٣٥ ، ٣٦] من سورة الطور.
(٤) الآية [٤١] من سورة النور.

الأدلة على صفة الوجود

أولا: الدليل النقلى:

قوله – تعالى – فى كتابه العزيز: ﴿أفى الله شك فاطر السموات والأرض﴾[١].

وقوله – تعالى –: ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون. أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[٢].

ثانيا: الدليل العقلى:

أن العالم مفتقر فى وجوده إلى الله – سبحانه – ومن افتقر العالم إليه فهو واجب الوجود. إذن فالله واجب الوجود.

دليل الصغرى أن العالم حادث. وكل حادث مفتقر إلى محدث.

دليل الكبرى أنه لو لم يكن المفتقر إليه واجب الوجود لكان ممكنا فيفتقر هو أيضا إلى محدث. ويفتقر محدثه إلى محدث. فيلزم الدور أو التسلسل وكلاهما محال. ولما كان افتقاره إلى محدث محالا فإن ما أدى إليه وهو كونه ليس واجب الوجود محال. وإذا استحال كونه ليس واجب الوجود. ثبت كونه واجب الوجود. وهو المطلوب[٣].

---

(١) جزء الآية [١٠] من سورة إبراهيم.

(٢) الآيتان [٣٥، ٣٦] من سورة الطور.

(٣) انظر: شرح البيجورى على الجوهرة المسمى «تحفة المريد على جوهرة التوحيد» للبيجورى ص ٦٣.

مناهج الاستدلال على وجود الله تعالى

لقد اختلفت مناهج الباحثين فى الاستدلال على وجود الله – تعالى – فلكل من الحشوية والصوفية والمتكلمين والفلاسفة منهج خاص وفيما يلى سوف نتناول منهج كل منهم على حدة:

١- منهج الحشوية:

ذهبت الحشوية وهم أهل الظاهر إلى أن الاستدلال على وجود الله – تعالى – إنما يكون بالسمع لا بالعقل. فالطريق الذى تراه هذه الطائفة، هو الاعتماد على ما جاء عن طريق الوحى فى الاستدلال على وجود الله.

فالحشوية ترفض الاستدلال العقلى، لأن العقل عندهم لا يستطيع الوصول إلى خالق الكون. ولهم أدلة عديدة على ما ذهبوا إليه[١].

إلا أن منهج الحشوية غير مسلم. لأن القرآن الكريم قد اعتمد الأدلة العقلية منهجا فى الاستدلال على وجوده -سبحانه وتعالى -.

قال – تعالى -: ﴿أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون۞ أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون﴾[٢].

وقال – تعالى -: ﴿وفى الأرض آيات للموقنين۞ وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[٣].

---

(١) انظر: أضواء على المنهج النقدى لابن رشد للدكتور محمود مزروعة ص ٨١.

(٢) الآيتان [٣٥ – ٣٦] من سورة الطور.

(٣) الآيتان [٢٠ – ٢١] من سورة الذاريات.

فالأدلـة الشرعية التى ترى الحشوية الاعتماد عليها لا تجدى إلا مع المؤمنين بهذا الشرع الذى تستمد منه الأدلة. أما غيرهم وهـم الذين لا يؤمنون بهذا الشرع فإن هذه الأدلة التى تستمد منه غير مجدية معهم لأنهم لا يؤمنون به ابتداء فكيف نلزمهم بما ورد فيه.

٢- منهج الصوفية

يختلف عـن مـنهج الحشوية فى الاستدلال على وجود الله – تعـالى – حيـث يرجعون فى معرفة الله – سبحانه – إلى المعرفة الاشراقية التى تفيض فى نفوس العارفين.

واستدلوا بنصوص كثيرة من القرآن الكريم منها:

قوله تعالى: ﴿**واتقوا الله ويعلمكم الله**﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿**إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا**﴾[2].

إلا أن منهج الصوفية منهج ذوقى لا دخل لنا به. حيث إنهم تـركوا النصـوص الـتى تحـث عـلى الـنظر العقلى «وهى تشغل جـزءا كـبيرا مـن القـرآن الكـريم» فـلم يتأملوها مع أنها أكثر وضوحا مما استشهدوا به[3].

٣- منهج المتكلمون

لقد اعتمدوا على العقل طريقا للاستدلال على وجود الله – تعـالى- كمـا اعتمدوا على الاستدلال بوجود المخلوقات التى تملأ

---

(١) جزء الآية [٢٨٢] من سورة البقرة.

(٢) جزء الآية [٢٩] من سورة الأنفال.

(٣) انظر: مقدمة مناهج الأدلة فى عقائد الملة ص٢٣ تقديم وتحقيق الدكتور محمود قاسم.

الكون على وجوده – جل وعلا – وذلك أخذا من قوله -تعالى-: ﴿وفى الأرض آيات للموقنين وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[1].

وقوله – تعالى -: ﴿قل سيروا فى الأرض فانظروا﴾[2].

ولقد استدل الأشاعرة على وجود الله – تعالى – بأدلة كثيرة نقلية وعقلية أهمها ما يسمى بدليل الحدوث الذى يقوم على أساسه الاستدلال على وجود الله بحدوث العالم. وهيئة الدليل كما يلى:

العالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث.

إذن العالم لا بد له من محدث ومحدث العالم هو الله.

إذن الله موجود.

ويعتمد دليل الحدوث على القول بالجواهر والأعراض. ودليل الحدوث به تطويل كثير، وفيه أخذ ورد بين القائلين به والمانعين إياه. ولقد كان حدوث الجواهر والأعراض طريقا لإثبات الخالق – سبحانه وتعالى – كما كان حدوث الجواهر الطريق الذى سلكه الخليل – عليه السلام – لإثبات وجود الله – تعالى -[3].

قال – تعالى -: (فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين)[4].

فقد استدل الخليل – عليه السلام – بحدوث الموجودات

---

(١) الآيتان [٢٠ ، ٢١] من سورة الذاريات.
(٢) جزء من الآية [٢٠] من سورة العنكبوت.
(٣) انظر: شرح المواقف للجرجانى ٢/٨.
(٤) الآية [٧٦] من سورة الأنعام.

وتغيرها، وانتقالها من حالة إلى حالة على إثبات الخالق؛ لأنه رأى الكوكب فقال: هذا ربى إلى آخر الآيات فى سورة الأنعام فعلم أنها هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها مُحْدَثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقا، فقال عند ذلك: ﴿إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين﴾[1].

٤- منهج الفلاسفة

ذهب الفلاسفة إلى أن الاستدلال على وجود الله – تعالى – إنما يرجع إلى دليل الإمكان. فالوجود ينقسم عندهم إلى واجب وممكن. أو إلى واجب الوجود وممكن الوجود.

فواجب الوجود هو ما كان وجوده من ذاته، ولا يحتاج فى وجوده إلى غيره، أما ممكن الوجود فى ذاته فهو ما يستوى فيه الطرفان فى الوجود والعدم، فلا يترجح أحدهما على الآخر إلا بمرجح. هذا المرجح إذا كان واجب الوجود فهو الله – تعالى – وهو المطلوب. وإذا كان ممكن الوجود فإنه يحتاج فى وجوده إلى مرجح هذا المرجح ممكن مثله فينتقل الكلام إليه وهكذا فإما أن تتسلسل الممكنات إلى ما لا نهاية أو يتوقف بعضها على بعض وهو الدور. والدور والتسلسل باطلان باتفاق العقلاء. فيثبت أن واجب الوجود هو الذى أخرج الممكن من العدم إلى الوجود وهو الله – سبحانه وتعالى –.

---

(١) الآية [٧٩] من سورة الأنعام.

يقـول صـاحب المواقـف أثـناء حديثه عن إثبات الصانع فى المسلك الثانى للحكماء «وهو أن موجودا، فإن كان واجبا فذاك وإن كان ممكنا احتاج إلى مؤثر، ولابد من الانتهاء إلى الواجب وإلا لزم الدور أو التسلسل»[1].

المنهج المختار فى الآراء حول وجود الله – تعالى – هو منهج المتكلمين الذين اعتمدوا فيه على المخلوقات كدليل على وجود الله – تعالى – لأنه منهج يدعو إلى النظر وإعمال الفكر، كما أنه يعتمد على النص يشرك معه العقل كهادٍ ودليل لـه.

(١) المواقف للإيجى ص ٢٦٦.

المبحث الرابع

أدلة إثبات وجود اللّه تعالى

المبحث الرابع

أدلة إثبات وجود الله تعالى

لما كان دليل المتكلمين هو إثبات قدم الصانع عن طريق إثبات حدوث العالم فقد عرضوا للبحث فى حدوث العالم وتركيبه من جواهر، وأعراض، وعرضوا لتعريف كل من الجوهر والعرض.

وقد أوردوا الدليل على وجود الله – تعالى – من خلال إثباتهم لحدوث العالم. والعالم عبارة عما عدا البارى – سبحانه وتعالى– من الموجودات[1]، أى هو كل شىء غير الله– عز وجل-.

أما الجوهر فهو ما تحيز بذاته، أو هو ما قام بنفسه، والعرض هو ما لم يتحيز بذاته، أو هو ما يقوم بغيره. «والعالم نوعان: جواهر وأعراض. والجواهر كل ذى لون. والأعراض هى الصفات القائمة بالجواهر من الحركة والسكون والطعم والرائحة والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وسائر الأعراض فإذا قلنا العالم محدث أردنا به حدوث الجواهر والأعراض»[2].

وقد استقصى الإمام أبو منصور البغدادى المسائل من جميع نواحيها حيث أورد رأى أهل اللغة فى الموضوع، ورأى الحكماء ثم استند إلى رأى المفسرين.

---

(١) انظر: المبين فى شرح معانى ألفاظ الحكماء والمتكلمين للآمدى ص ٩٩ تحقيق وتقديم الدكتور حسن محمود الشافعى.

(٢) أصول الدين للبغدادى ص ٣٣ وما بعدها.

يقـول الـبغدادى: «وزعـم بعض أهل اللغة أن العالم كل ما لـه عـلم وحـس. وقـال آخـرون إنه مأخوذ من العلم الذى هو العلامـة وهـذا أصـح لأن كـل مـا فـى العالم علامة ودلالة على صـانعه، وقـد اخـتلف المفسـرون فـى العالم. فمنهم من قال الله تعـالى ثمانـية عشر ألف عالم كل واحد منها مثـل العالم المحسوس أو أكـبر مـنه. ومنه من قال (تسعون ألف عالم) ومنهم من قال (ألـف عـالم مؤولـين قولـه -عز وجل-: ﴿رب العالمين﴾ كدليل على ما ذكروا من العدد). وقد قال بعض الحكماء: إن كل شىء فى العـالم الكـبير لـه نظـير فـى العـالم الصـغير الذى هو بدن الإنسـان[1]. ولذلـك قال -تعالى-: ﴿لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم﴾[2] وقال أيضا: ﴿وفى أنفسكم أفلا تبصرون﴾[3].

مـن هـذا النص يتبين أن البغدادى يتفق مع المفسرين فى تعـريف العـالم حيـث يقول: «إن العالم جملة الجواهر والأعراض شـامل للأعداد التى ذكروها»[4] وهى التى ذكرها المفسرون قولهم إن العالم ثمانية عشر ألف عالم. وقولهم إنه تسعون ألف عالم. وقولهم أيضاً إنه ألف عالم.

وهـذه الآراء – مـن وجهـة نظـرى – إنما هى رجم بالغيب، واجتهادات غير صحيحة ونحن نؤمن يقينا بوجود عوالم كثيرة،

(١) المرجع السابق ص٣٤.
(٢) الآية [٤] من سورة التين.
(٣) الآية [٢١] من سورة الذاريات.
(٤) أصول الدين ص ٣٤.

لكنا نفوض العلم بها كما وكيفا إلى الله – سبحانه وتعالى – لأنها غيب من غيب الله ، ولا سبيل إلى معرفة الغيب عندنا إلا من طريقين:

الأول: صريح الكتاب.

الثانى: صحيح السنة.

وماعدا ذلك عبارة عن اجتهادات غير صحيحة.

على أن كثيراً من المفسرين قد أرجعوا جمع عالم الذى هو «العالمين» فى قوله – تعالى –: ﴿رب العالمين﴾ إلى عوالم السماوات والأرض فقالوا: عالم الملائكة – عالم الإنس – عالم الجن – عالم الطير عالم الحيوان .. الخ.

والباحثون يذكرون أن تلامذة «الأشعرى» قد لجأوا إلى الفلسفة فى تدعيم مذهبهم، وإن كان هذا اللجوء لم يصل إلى حد التوغل فى الفلسفة، بل أخذ بالقدر الذى يعين على توضيح الأدلة أو تدعيمها.

يذكر «ابن خلدون» أن صور الأدلة لم تكن ظاهرة فى الملة ولو ظهر منها بعض الشىء لا يأخذ به المتكلمون لملابستها للعلوم الفلسفية المباينة للعقائد الشرعية بالجملة فكانت مهجورة عندهم حتى جاء القاضى أبو بكر الباقلانى[1].

ولقد كان البغدادى من بين هؤلاء المتكلمين الذين لجأوا إلى الفلسفة لتدعيم مذهبهم. ولا أدل على ذلك من توغله فى بيان الجواهر والأعراض وتقسيمها.

---

(١) انظر: المقدمة ص ٤٢٩.

والبغدادى قد لجأ إلى بيان هذه الأمور كى يخرج منها بالنتيجة القائلة إن العالم حادث ليكون جزءا من دليله، حيث إن إثبات حدوث العالم يأتى به الدليل على قدم الله - سبحانه - إذ لو لم يكن الله - تعالى - قديما لكان حادثا ولأدى ذلك إما إلى التسلسل وإما إلى الدور وكلاهما باطل.

وبعد أن انتهى البغدادى من إثبات حدوث العالم شرع فى بيان الجزء الثانى من القضية، وذلك عن طريق إثبات قدم - البارى سبحانه - حيث قرر ضرورة محدث يحدث الحوادث. ردا على الدهرية القائلين بأن الدهر هو المحى والمميت.

﴿وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون﴾[1].

واستدل البغدادى على أنه لابد من خالق للكون. وأنه لابد للحوادث من محدث أوجدها فقال: «والدليل على أن الحادث لابد له من محدث أنه يحدث فى وقت ويحدث ما هو من جنسه فى وقت آخر فلو كان حدوثه فى وقته لاختصاصه لوجب أن يحدث فى وقته كل ما هو من جنسه وإذا بطل اختصاصه بوقته لأجل الوقت صح أن اختصاصه به لأجل مخصص خصصه به لولا تخصيصه إياه به لم يكن حدوثه فى وقته أولى من حدوثه قبل ذلك أو بعده ولأنه إذا لم يصح حدوث كتابة لا من كاتب ونسج لا من ناسج وبناء لا من بان كذلك لا يصح وقوع حادث لا

---

(١) الآية [٢٤] من سورة الجاثية.

من محدث»[1].

والبغدادى هنا استدل على وجود الله – تعالى – متابعا فى ذلك شيخه الأشعرى فيما استدل به على ذلك، ومتابعا كذلك للباقلانى فى بعض استدلالاته على وجود الله.

فالإمام: «أبو الحسن الأشعرى» استدل على وجود الله – سبحانه وتعالى– بعجز الإنسان الذى هو فى غاية الكمال والتمام عن تحويل نفسه من نطفة إلى علقة إلى مضغة إلى أن يصير مخلوقا متكاملا، وكذلك عجز الإنسان عن تحويل نفسه من الطفولة إلى الشباب، ومن الكبر إلى الشباب، فلا شك أن هناك مدبرا لهذه الأحوال والأطوار التى ينتقل فيها الإنسان من طفولة إلى شباب وغيره. فكما أن الإنسان يعجز عن خلق نفسه، فكذلك يستحيل أن يوجد نسيج بغير ناسج، وبناء من غير بان، وإذا كان هذا هو شأن النسيج والمبانى فإن الإنسان الذى هو أعظم ما خلق الله – تعالى – على الأرض العاجز عن خلق نفسه وتنقله من طور إلى آخر لا يمكن أن يوجد من غير خالق أوجده من عدم[2].

فالأشعرى يستدل على وجود الله – عز وجل – من الصنع على الصانع، ومن صفات الصنع التى هى فى غاية الدقة والإحكام على صفات الصانع – سبحانه وتعالى – فوجود العالم يدل على وجود خالق له متصف بالقدرة والحكمة.

وقد استدل الباقلانى على إثبات الخالق بقوله:

---

(١) أصول الدين ص ٦٩.

(٢) انظر: اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص ١٧ وما بعدها تحقيق حمودة غرابة.

«لابد لهذا العالم المحدث المصور من محدث مصور. والدليل على ذلك أن الكتابة لا بد لها من كاتب، ولا بد للصورة من مصور، وللبناء من بان، وأنا لا نشك فى جهل من أخبرنا بكتابة حصلت لا من كاتب، وصياغة لا من صائغ، وحياكة لا من حائك. فوجب أن تكون صور العالم وحركات الفلك متعلقة بصانع صنعها، إذ كانت ألطف وأعجب صنعا من سائر ما يتعذر وجوده، لا من صانع من الحركات والتصويرات»[1].

(١) التمهيد ص ٢٣ تحقيق الأب مكارثى.

المبحث الخامس

صفات السلب

المبحث الخامس

صفات السلب

أولا: صفة الوحدانية

صفة الوحدانية تعنى عدم التعدد فى الذات أو الصفات أو الأفعال. فالله – سبحانه وتعالى – واحد فى ذاته، واحد فى صفاته، واحد فى أفعاله. ومعنى كونه واحدا فى ذاته أنه لا توجد ذات تشبه ذاته – سبحانه وتعالى – وأنه ليس مركبا من أجزاء حتى يكون – سبحانه وتعالى – محتاجا إلى هذه الأجزاء التى تركب منها.

أما معنى كونه واحدا فى صفاته فإنه لا توجد صفة تشبه صفة من صفاته – سبحانه وتعالى – إلا أنه قد تتفق فى التسمية فقط صفات الحوادث مع الحق – تبارك وتعالى – لكن الحقيقة بينهما متفاوتة. فقد يتصف إنسان ما بالعلم مثلا فى الوقت الذى اتصف فيه البارئ – سبحانه وتعالى – بهذه الصفة فالاتفاق بينهما من ناحية التسمية فقط أما الحقيقة والجوهر فهما خلاف ذلك إذ شتان بين علم البشر وبين علم الله – سبحانه وتعالى – الشامل المحيط. يقول – سبحانه وتعالى -: ﴿الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شىء عنده بمقدار. عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال﴾[1].

كما أن هناك فرقا شاسعا بين صفة البشر والخالق -

(١) الآيتان [٨، ٩] من سورة الرعد.

سبحانه وتعالى – فصفة السمع عند البشر تحتاج إلى آلة لتحصيلها مكونة من أذن خارجية ووسطى وداخلية والأذن الداخلية تتكون من الركاب والمطرقة والسندال .. إلخ. وهذه الأذن تتعرض للسقم والعافية. لكن هذه الصفة مطلقة بالنسبة لله – سبحانه وتعالى – فلا تحتاج إلى آلة لتحصيلها.

ومعنى كونه واحدا فى أفعاله أنه لا يوجد فعل يشبه فعله – سبحانه وتعالى – فهو الخالق فلا خالق غيره وهو الرازق حيث لا رازق سواه وهو المحيى وهو المميت وهو على كل شيء قدير.

أدلة صفة الوحدانية

أولا: الدليل النقلى:

قوله – تعالى - : ﴿وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم﴾[1] وقوله – تعالى - : ﴿قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذى العرش سبيلا۝ سبحانه وتعالى عما يقولون علوا كبيرا﴾[2]. وقوله - تعالى -: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون﴾[3].

وقوله – تعالى -: ﴿ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان

(١) الآية [١٦٣] من سورة البقرة.
(٢) الآيتان [٤٢ ، ٤٣] من سورة الإسراء.
(٣) الآية [٢٢] من سورة الأنبياء.

الله عما يصفون﴾[1].

ثانيا: الدليل العقلى:

لـو فـرض ووجـد إلهان فإمـا أن يـتفقا وإما أن يختلفا. أما اتفاقهمـا فمحـال. واخـتلافهما يـؤدى إلى عدم وجود السماوات والأرض. إلا أن عـدم وجودهمـا باطل بالمشاهدة فبطل ما أدى إلـيه من وجود إلهين فأكثر، وثبت نقيضه وهو وجود إله واحد لا شريك لـه. وهو المطلوب.

بيان هذا الدليل:

أنه لو وجد إلهان فإما أن يتفقا وإما أن يختلفا:

فـإن اخـتلفا بـأن أراد أحدهمـا إيجاد شىء والآخر إعدامه. فإمـا أن يتحقق مرادهما معا وهو محال لأنه جمع بين النقيضين فـيكون الشـىء موجودا معدوما فى آن واحد وهو باطل. وإما أن لا يـتحقق مـرادهما فيثبت عجـزهما معا وعجز الإله محال. وإمـا أن يـتحقق مـراد أحدهمـا ولا يـتحقق مراد الآخر فالذى تحقق مراده هو الإله. أم الذى لم يتحقق مراده فلا يكون إلها لأن الإله لا يكون عاجزا[2].

يقـول الدكـتور سـيد عـبد الـتواب: «إن الـتفرد هو السمة الأساسـية فـى الألوهية فإذا حصل التعدد حصل التنازع، وإذا حصـل التـنازع، اخـتل نظـام الكون – بل قد لا يوجد أصلا –

---

(١) الآية [٩١] من سورة المؤمنون.

(٢) انظـر: رسالة استحسان الخوض فى علم الكلام للأشعرى ص ٩٦ ملحقة بكتاب علم الكلام تعريفه وعوامل نشأته للدكتور عامر النجار.

لكـن المشـاهد أن الكـون موجـود وجـودا غايـة فـى الإتقـان والإحكام إذن الله واحد لا إله غيره[1].

ثانيا: صفة القدم:

صـفة القـدم: تعـنى عـدم أولـية الوجـود، فالإلـه لا أول لوجوده بمعنى أن الوجود يثبت لـه بلا ابتداء.

وقـد جـرت عـادة المتكـلمين أن يعـبروا عن الأولية بصفة «القـدم» وقـد ذكـرها القـرآن العظـيم بلفـظ «الأول». وصفة الأولـية فـى القـرآن الكريم أدق وأكثر إصابة فى معناها. إذ أن لقطة «القدم» تعبر عن الأسبقية النسبية. فالقديم هو السابق عـلى غـيره. وكل شىء بالنسبة إلى لاحقه قديم. أما بالنسبة إلى سـابقه فهـو حـادث ولذا فإن لفظة «قديم» تعبر عن الأسبقية النسبية.

أمـا لفظـة «الأول» فهـى تدل على الأسبقية المطلقة. ولذا فهـى أدق وأكـثر إصـابة – كمـا ذكـرنا – ومـن هنا كانت لفظة الأولية أفضل فى محلها من القدم لأمرين:

الأول: أنهـا هـى اللفظـة الشـرعية الـتى ورد ذكـرها فـى القرآن الكريم.

الثانى: أنها أدق فى معناها.

---

(١) العقـيدة الديـنـية فى ضوء القرآن الكريم ص ٦٦ نقلا عن: العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب للدكتور عبد السلام عبده ص ٢٢٢.

أدلة صفة القدم

أولا: الدليل النقلى:

قولـه – تعـالى -: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[1] وقـول رسـول الله – صـلى الله عليـه وسلم -: «كان الله ولم يكن شىء غيره»[2].

ثانيا: الدليل العقلى:

أن الله – تعالى – لو لم يكن قديما لكان حادثا، ولو كان حادثا لافتقر إلى محدث. وهذا المحدث إن كان قديما ثبت المطلوب. وإن كان حادثا افـتقر إلى محدث. وهكذا فيلزم الدور والتسلسل وكلاهما محال. فبطل ما أدى إليه وهو كونه حادثا. وثبت أنه قديم. وهو المطلوب[3].

ثانيا: صفة البقاء:

صـفة الـبقاء: تعـنى عـدم آخـرية الوجـود، أو عدم انتهاء الوجـود أو عـدم فـناء الـذات الإلهـية. فـالذات الإلهـية موصوفة بالـبقاء الذى لا نهاية لـه، فلا يأتى حال تفنى فيها الذات الإلهية، أو تنعدم أو ينقطع وجودها.

وهـذه الصـفة مـن الصفات السلبية التى لا تضيف معنى زائـدا على الذات الإلهية، ولكنها تعنى سلب أو نفى نقيضها عن

---

(١) جزء الآية [٣] من سورة الحديد.

(٢) فتح البارى بشرح صحيح البخارى لابن حجر العسقلانى ٦/١٣ كتاب بدء الخلق. راجعه طه عبد الرءوف سعد وآخرون. ولقد ورد فى رواية غير البخارى «ولم يكن شىء معه».

(٣) انظر: العقائد الإيمانية فى العقيدة الإسلامية للدكتور عبد السلام عبده ص ١٢٢.

ذات الله – سبحانه وتعالى – فوصف الإله بالبقاء يعنى نفى الفناء عنه – سبحانه وتعالى –.

والأولى أن يقال «الآخر» ولا يقال «البقاء» لأن لفظة «البقاء» تدل على المعنى النسبى لأن الباقى هو الذى يبقى مدة معينة. أما لفظة «الآخر» فإنها تدل على الآخرية المطلقة فالآخر هو الذى يبقى بعد انتهاء الكل. ومن هنا كانت لفظة «الآخرية» أفضل فى محلها من لفظة «البقاء» لأمرين:

الأول: أنها اللفظة الشرعية التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم حيث يقول الله – سبحانه وتعالى -: ﴿هو الأول والآخر﴾[1].

الثانى: أنها أدق فى معناها.

أدلة صفة البقاء

أولا: الدليل النقلى:

قوله – تعالى -: ﴿كل من عليها فان۞ ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام﴾[2].

وقوله – تعالى -: ﴿كل شىء هالك إلا وجهه﴾[3].

وقوله – تعالى -: ﴿هو الأول والآخر والظاهر والباطن﴾[4].

ما روى عن أبى هريرة – رضى الله عنه – أنه قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم -: «أصدق كلمة قالها شاعر.

(١) جزء الآية [٣] من سورة الحديد.
(٢) الآيتان [٢٦، ٢٧] من سورة الرحمن.
(٣) جزء الآية [٨٨] من سورة القصص.
(٤) جزء الآية [٣] من سورة الحديد.

كلمة لبيد: ألا كل شىء ما خلا الله باطل»[1].

ثانيا: الدليل العقلى:

١- أن الله – تعالى – لو لم يكن باقيا لكان فانيا، ولو كان كذلك لاستمد البقاء من غيره لا من ذاته. ولو استمد البقاء غيره لاحتاج إلى موجود يستمد وجوده منه فإن كان باقيا فهو الموجود لذاته. وهو المطلوب. وإن لم يكن كذلك فهو أيضا محتاج إلى موجود يستند إليه فى وجوده وهكذا. وهذا مؤد إلى التسلسل أو الدور وكلاهما باطل فبطل ما أدى إليه من كونه محتاجا إلى غيره فى بقائه وثبت له البقاء.

٢- أن الله – تعالى – لو لم يكن باقيا لما كان قديما لكن عدم كونه قديما باطل حيث إنه ثبت بالدليل كونه قديما فبطل ما أدى إليه من نفى البقاء وثبت له البقاء. وهو المطلوب.

٣- أن الله – تعالى – لو جاز عليه العدم لاستحال عليه القدم وقد ثبت قدمه بالدليل. وكل ما ثبت قدمه استحال عدمه، فثبت البقاء لله – تعالى – وهو المطلوب.

رابعا: صفة القيام بالنفس:

القيام بالنفس يعنى عدم الاحتياج إلى الغير.

فسبحانه وتعالى غير محتاج إلى من عداه حيث يحتاج إليه كل من عداه. والقيام بالنفس من الصفات السلبية مفهومها سلب نقيضها وهو الاحتياج إلى الغير، أو القيام بالغير، أو الاستناد إلى

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٢/١٥ وما بعدها كتاب الشعر.

الغير وقد ثبت لله – تعالى – الاستغناء عن الغير. بأدلة كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر قوله: ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾[1].

ومعنى قيامه بنفسه – سبحانه وتعالى – عدم احتياجه إلى المحل أى الذات التى يقوم بها. وكذا عدم احتياجه إلى المخصص أى الموجد[2].

---

(١) الآية [١٥] من سورة فاطر.

(٢) انظر: فى العقيدة الإسلامية للدكتور أحمد شبل أبو السعادات القسم الأول ص٧١.

أدلة صفة القيام بالنفس

أولا: الدليل النقلى:

قوله – تعالى –: ﴿يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد﴾[1].

ما رواه مسلم عن أبى ذر – رضى الله عنهما – عن النبى – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن الله – عز وجل – أنه قال: «يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرما فلا تظالموا. يا عبادى كلكم ضال إلا من هديته فاستهدونى أهدكم. يا عبادى كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمونى أطعمكم. يا عبادى كلكم عار إلا من كسوته فاستكسونى أكسكم. يا عبادى إنكم تخطئون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعا فاستغفرونى أغفر لكم. يا عبادى إنكم لن تبلغوا ضرى فتضرونى ولن تبلغوا نفعى فتنفعونى. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك فى ملكى شيئا. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم ما نقص ذلك من ملكى شيئا. يا عبادى لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا فى صعيد واحد فسألونى فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص مما عندى إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر. يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم

(١) الآية [١٥] من سورة فاطر.

ثم أوفيكم إياها فمن وجد خيرا فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» قال سعيد كان أبو إدريس الخولانى إذا حدث بهذا الحديث جثا على ركبتيه[1].

ثانيا: الدليل العقلى:

أن الله - سبحانه وتعالى - لو لم يكن قائما بنفسه لاحتاج وافتقر إلى غيره. فإن كان غيره غير محتاج إليه فهو الإله وهذا محال. وإن كان محتاجا إلى غيره فليس بإله، وهذا إلى أن يتسلسل الأمر أو يدور فإنه لابد من موجود سابق على الكل يستند إليه الكل فى وجوده ولا يستند هو إلى شىء. وبذا يثبت أن الله تعالى قائم بنفسه غير مفتقر إلى غيره.

خامسا: صفة المخالفة للحوادث:

تعنى هذه الصفة أن الله - تعالى - يختلف عن الموجودات كلها. لا يشبه شيئا، ولا يشبهه شىء. والمخالفة للحوادث صفة سلبية مفهومها سلب نقيضها وهو كونه - تعالى - مشابها للحوادث. ومماثلته أو مشابهته للمخلوقات فى بعض الصفات إنما تكون من ناحية التسمية فقط لا من ناحية الحقيقة.

---

(١) صحيح مسلم بشرح النووى ١٣٢/١٦ باب تحريم الظلم.

أدلة صفة المخالفة للحوادث

أولا: الدليل النقلى:

قولــه – تعـالى –: ﴿**لــيس كمــثله شــىء وهــو السميع البصــير**﴾[1] قال الإمام أبو السعود عند تفسيره لهذه الآية: «أى لـيس مـثله فـى شـأن من الشئون التى من جملتها هذا التدبير الـبديع، والمراد من مثله ذاته. كما فى قولهم مثلك لا يفعل كذا عـلى قصد المبالغة فى نفيه عنه فإنه إذا نفى عمن يناسبه كان نفـيه عـنه أولى، ثـم سلكت هذه الطريقة فى شأن من لا مثـل لــه وهـو الله – سـبحانه وتعـالى – وقـيل المراد مثـل صفته أى ليس كصفته صفة»[2].

ثانيا: الدليل العقلى:

أن الله – سـبحانه وتعـالى – لو لم يكن مخالفا للحوادث لكان مماثلا لها، ولو كان مماثلا لها لكان حادثا مثلها، وكونه حادثا باطل، لما ثبـت من أنه تعالى قديم. وإذا بطل كونه حادثا بطل ما أدى إليه من مماثلته للحوادث، وثبت أنه مخالف لها. وهو المطلوب. فالله – تعـالى – لا يشـبه الحـوادث فـى شـىء. فهـو – تعـالى – لـيس جوهرا. وليس عرضا. وليس جسما. وليس محدودا بمكان. وليس محدودا بزمان. وليس مركبا. وليس جزءا.

---

(١) جزء الآية [١١] من سورة الشورى.

(٢) تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم ٢٥/٨.

المبحث السادس

اختلاف الآراء حول مخالفته تعالى للحوادث

المبحث السادس

اختلاف الآراء حول مخالفته تعالى للحوادث

لقد اختلفت آراء الباحثين حول مخالفته – تعالى – للحوادث فمنهم مشبه مجسم. أى أنه لا يثبت هذه الصفة، ومنهم منزه. أما المشبهة فهم فرق كثيرة منهم الغالون، ومنهم دون ذلك. وكلهم ملة واحدة، خالفت جماعة المسلمين، وخرجت عن شرع الله.

قال هشام بن الحكم: «إن الله جسم محدود عريض طويل عميق، طوله مثل عرضه، وعرضه مثل عمقه، نور ساطع، له قدر من الأقدار، بمعنى أن له مقدارا فى طوله وعرضه وعمقه لا يتجاوزه فى مكان دون مكان، كالسبيكة الصافية يتلألأ كاللؤلؤة المستديرة من جميع جوانبها، ذو لون وطعم ورائحة ومجسة لونه هو طعمه، وهو رائحته، وهو مجسته، وهو نفسه، لون ولم يثبت لونا غيره، وأنه يتحرك ويسكن ويقوم ويقعد. وحكى عنه أبو الهذيل أنه أجابه إلى أن جبل أبى قبيس أعظم من معبوده. وحكى عنه «ابن الراوندى» أنه زعم أن الله – سبحانه – يشبه الأجسام التى خلقها من جهة من الجهات، ولولا ذلك مادلت عليه»[1].

وقال هشام بن سالم الجواليقى: «إن الله على صورة الإنسان وأنكر أن يكون لحما ودما، وإنه نور ساطع يتلألأ بياضا، وإنه ذو حواس خمس، كحواس الإنسان، سمعه غير بصره، وكذلك سائر

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى ٢٨١/١، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين للرازى ص٩٧

حواسه له يد ورجل وأذن وعين وأنف وفم، وإن له فروة سوداء»[1].

وقال «داود الجواربى» و«مقاتل بن سليمان»: «إن الله جسم، وإنه جثة على صورة الإنسان لحم ودم وشعر وعظم، له جوارح وأعضاء من يد ورجل ولسان ورأس وعينين، وهو - مع هذا - لا يشبه غيره ولا يشبهه غيره. وحكى عن «الجواربى» أنه كان يقول: «أجوف من فيه إلى صدره، ومصمت ما سوى ذلك. وكثير من الناس يقولون: هو مصمت، ويتأولون قول الله (الصمد) المصمت الذى بأجوف»[2].

وقد نشأت فكرة التشبيه والتجسيم من النظر فى المتشابهات، وذلك فى عهد السلف.

يقول ابن خلدون: «وشذ لعصرهم مبتدعة اتبعوا ما تشابه من الآيات وتوغلوا فى التشبيه، ففريق أشبهوا فى الذات باعتقاد اليد والقدم والوجه عملا بظواهر وردت بذلك فوقعوا فى التجسيم الصريح، ومخالفة أى التنزيه المطلق. وفريق منهم ذهبوا إلى التشبيه فى الصفات كإثبات الجهة والاستواء والنزول والصوت والحرف وآل قولهم إلى التجسيم»[3].

وأما المنزهون ففريقان:

سنيون نهجوا منهج السلف.

ومعتزلة لجأوا إلى التأويل.

---

(١) مقالات الإسلاميين ٢٨٣/١

(٢) المرجع السابق.

(٣) المقدمة ص ٤٢٨.

وأساس الاختلاف بين الفريقين النصوص الشرعية الواردة فى كتاب الله – تعالى – وسنه رسوله – صلى الله عليه وسلم – الموهم ظاهرها التشبيه والتمثيل. مثل قوله – تعالى– ﴿يد الله فوق أيديهم﴾[1]. وقوله – تعالى –: ﴿ويبقى وجه ربك﴾[2] وقوله – تعالى –: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[3] وقوله – تعالى–: ﴿ولتصنع على عينى﴾[4] وقوله – تعالى –: ﴿والسموات مطويات بيمينه﴾[5] وقوله – تعالى –: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[6].

وقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم - «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن» وقوله – صلى الله عليه وسلم–: «يضع الجبار قدمه فى النار».

فأهل السنة: يذهبون إلى أن المعنى الظاهر غير مراد، ويفوضون المعنى المراد إلى الله – سبحانه وتعالى – معتقدين أن الله – سبحانه وتعالى – وإن كان قد أثبت لنفسه أو لذاته اليد والوجه والعين والأصابع قرآنا وسنة. إلا أن هذا ليس محمولا على المعنى الظاهر المتبادر للذهن لوجود مانع وهو قوله –

(١) جزء الآية [١٠] من سورة الفتح.
(٢) جزء الآية [٢٧] من سورة الرحمن.
(٣) الآية [٥] من سورة طه.
(٤) جزء الآية [٣٨] من سورة طه.
(٥) جزء الآية [٦٧] من سورة الزمر.
(٦) الآية [٢٢] من سورة الفجر.

تعالى-: ﴿ليس كمثله شيء﴾[1] وأنه لا يصح أن نثبت لله إلا ما أثبت لذاته ولا ننفى إلا ما نفى عن ذاته بناء على ما تقرر من: أنه لا يعرف الله إلا الله – سبحانه وتعالى -.

يقول الشهرستانى عن السلف إنهم قالوا: «نؤمن بما ورد به الكتاب والسنة ولا نتعرض للتأويل بعد أن نعلم قطعا أن الله لا يشبه شيئا من المخلوقات»[2].

والمعتزلة: يقولون بوجوب تأويل الآيات المتشابهة التى توهم المشابهة والمماثلة. ولهم تأويلات تناسب الآيات والأحاديث التى توهم المشابهة فهم يقولون فى قوله – تعالى -: ﴿يد اللّه فوق أيديهم﴾[3] إن المعنى الظاهر يستحيل إسناده إلى اللّه سبحانه وتعالى، لأنه يتنافى مع قوله – تعالى -: ﴿ليس كمثله شئ﴾[4] ويقولون لابد من التأويل بما يتناسب مع قدسية اللّه - عز وجل- فاليد فى الآية تؤول بالقدرة. ويقولون فى قوله – تعالى -: ﴿وجاء ربك والملك صفا صفا﴾[5] إن المراد وجاء أمر ربك ويقولون فى قوله – تعالى -: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾[6] إن المراد الرحمن على العرش استولى. ويقولون فى

(١) جزء الآية [١١] من سورة الشورى.
(٢) الملل والنحل ١/١١٠.
(٣) جزء الآية [١٠] من سورة الفتح.
(٤) جزء الآية [١١] من سورة الشورى.
(٥) الآية [٢٢] من سورة الفجر.
(٦) الآية [٥] من سورة طه.

قولـه – تعـالى-: ﴿والسـموات مطويات بيمينه﴾[1] إن المراد أن السموات مطويات بقدرته.

والذى حدا بالمعتزلة إلى أن يذهبوا إلى ما ذهبوا إليه أمران:

الأول: أن آيات القرآن الكريم نزلت ولها معان ونحن ملزمون بـأن نـتعرف عـلى هـذه المعـانى، ونجـتهد فـى الحصـول علـيها والوصـول إليها. وأن التفويض فى المتشابهات يؤدى إلى تعطيل قـدر كبير من القرآن الكريم عن الهدف والغاية التى أرادها الله -تبارك وتعالى- من إنزاله علينا أن الله – تعالى – قد أخفى عنا معـانى هذه الآيات كى يفتح باب الاجتهاد والبحث وبذل الطاقة للمسـلمين وصـولا إلى هـذه المعانى وفى هذا فتح باب لحصولهم عـلى المثوبة والأجر الجزيل جزاء جدهم واجتهادهم حول فهم معانى القرآن الكريم.

الـثانى: ميـلهم إلى التـنزيه المطلـق خوفـا ممـا وقـع فـيه النصارى.

الرد على المعتزلة:

أمـا قولهم بالاجتهاد فى فهم معانى القرآن الكريم فمردود. إذ لا اجـتهاد فـى نـص مـن النصوص المعصومة. وقد ترك لنا سـلفنا الصـالح مـن الصـحابة والـتابعين مـنهجا يقـوم عـلى الـتفويض، وعـدم القـول فـى كـتاب الله بالرأى. ثم ماذا يقول

(١) جزء الآية [٦٧] من سورة الزمر.

المؤول عندما يقف بين يدى الله – سبحانه وتعالى – ويقول له: كذبت على وافتريت ما إلى ذلك قصدت؟

وأما القول بتعطيل القرآن عن العمل به بسبب عدم فهم المراد منه فمردود. لأنه – تعالى – لم يكلفنا بحكم من أحكام الشريعة بآيات متشابهات. بل جميع الأحكام وردت فى الآيات المحكمات التى هى أم الكتاب يوضح ذلك قول الله -سبحانه وتعالى-: ﴿هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله﴾[1] فقد أوضحت الآية الكريمة الحكمة من نزول الآيات المتشابهات وهى التميز بين من يؤمن ويفوض. ومن يتبع التأويل ويبتغى الفتنة.

وأما ادعاؤهم التنزيه. فنحن نفوقهم فى هذا حيث إننا نؤمن بأن الله -تعالى- له من الصفات ما أثبتها، فله -تعالى- يد، وله عين ...إلخ وأن هذه الصفات لا تشبه صفات المخلوقات فهى مختلفة عنها تماما.

الرأى المختار: أن اللّه -سبحانه وتعالى- أخبر عن ذاته بأن له يدا فمن من الخلق يستطيع أن يقول إنه ليس له يد، وقد أخبر عن ذاته بذلك ومن أعرف بالله من اللّه. كما أنه -تبارك وتعالى- قد أخبر بأن له وجها ويدا وأصابعا وقدما وعينا. وإذا كان سبحانه وتعالى قد أثبت ذلك لذاته فمن يستطيع أن

---

(١) جزء الآية [٧] من سورة آل عمران.

يزعم أنه أعرف بالله من ذاته فينفى عنه -تعالى- ما أثبت لذاته من الوجه واليد والقدم والأصابع..إلخ

من هنا فإننى أرى أن الرأى المختار هو التفويض وعدم الخوض فى الآيات التى يوهم ظاهرها المماثلة والمشابهة وما أروع ما قاله مالك بن أنس -رضى الله عنه- عندما سئل عن الاستواء فقال: "الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول، والإيمان به واجب والسؤال عنه بدعة".

المبحث السابع

صفات المعانى

المبحث السابع

صفات المعانى

أولا: صفة القدرة:

القدرة لغة: القوة والاستطاعة.

واصطلاحا: صفة أزلية قائمة بذاته تعالى يتأتى بها إيجاد الممكن وإعدامه على وفق الإرداة.

شرح التعريف:

«أزلية» الأزل: هو ما قبل وجود المخلوقات أى حين كان اللّه -تعالى- ولا شئ معه وانتهى بوجود المخلوقات وسيظل حين يكون اللّه ولا شئ معه بعد فناء المخلوقات، فمعنى أنها صفة أزلية: أنها موجودة بلا أولية وباقية بلا آخرية.

«يتأتى بها» أى أن وظيفتها بالإضافة إلى اتصاف الذات بها أنها توجد الممكن وتعدمه.

«الممكن» هو الذى يقبل الوجود تارة والعدم تارة أخرى. أو هو ما استوى طرفاه وجودا وعدما.

«على وفق الإرادة» أى على ما أراد – سبحانه وتعالى – فما خصصه اللّه بإرادته أبرزه بقدرته فتعلق الإرادة لكون أزليا سابقا على تعلق القدرة لكونه تنجيزيا حادثا[1].

---

(١) انظر: العقيدة الإسلامية فى ضوء النقل والعقل والقلب ص٢٣٧ وما بعدها

أدلة صفة القدرة

أولا: الدليل النقلى:

قولــه -تعالى-: ﴿تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شئ قدير﴾(1).

وقولــه -تعـالى-: ﴿ولله ملك السموات والأرض والله على كل شئ قدير﴾(2).

ثانيا: الدليل العقلى:

١- أن اللّه – سبحانه وتعالى- لو لم يكن قادرا لكان عاجزا. ولو كان عاجزا ما وجدت هذه الكائنات ولا شئ منها. لكن عدم وجودهمـا بـاطل بدليل مشاهدة وجودهما. فبطل ما أدى إليه وهـو اتصـاف اللّـه -تعـالى- بالعجـز ووجـب اتصافه -سبحانه وتعالى- بالقدرة.

٢- اللّـه صانع قديم له مصنوع حادث. وكل من كان كذلك تجب له القدرة. فالله تجب له القدرة.

ثانيا: صفة الإرادة:

الإرادة لغة: مطلق القصد.

واصـطلاحا: صـفة أزلـية قائمـة بذاتـه -تعـالى- تخصـص الممكن ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلات.

---

(١) الآية [١] من سورة الملك.

(٢) الآية [١٨٩] من سورة آل عمران.

شرح التعريف:

«صفة أزلية قائمة بذاته -تعالى-» تقدم شرحها.

«تخصص الممكن»: أى أن الله - سبحانه وتعالى- يخصص بإرادته الممكن بالوجود بدل العدم والعلم بدل الجهل والعكس...إلخ. فلو أراد الله -سبحانه وتعالى- أن يخلق العالم الذى نعيش فيه على نحو آخر لا يعارضه فى ذلك معارض ولكان له - سبحانه وتعالى- ما أراد وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون﴾(1).

«ببعض ما يجوز عليه من الأمور المتقابلات»: أى الأمور المتنافية ولقد حدد صاحب الجوهرة الأمور المتقابلة بستة:

١- الوجود يقابل العدم وبالعكس.

٢- بعض الصفات يقابل البعض الآخر ككون أبيض يقابل أسود وهكذا.

٣- بعض الأزمنة يقابل البعض الآخر فكونه فى زمن الطوفان مثلا يقابل كونه فى زمن -محمد- عليه الصلاة والسلام.

٤- بعض الأمكنة يقابل البعض الآخر ككونه فى مصر مثلا يقابل كونه فى بلاد الشام.

٥- بعض الجهات يقابل البعض الآخر فكونه فى الشرق مثلا يقابل كونه فى الغرب.

---

(١) الآية [٨٢] من سورة يس.

٦- بعض المقادير يقابل البعض الآخر فكونه طويلا يقابل كونه قصيرا[1].

أدلة صفة الإرادة

أولا: الدليل النقلي:

قولـه – تعالى –: ﴿إن ربك فعال لما يريد﴾[2].

وقولــه – تعـالى–: ﴿وربــك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة سبحان اللّه وتعالى عما يشركون﴾[3].

وقولــه – تعـالى–: ﴿إنما قولنا لشئ إذا أردناه أن نقول له كن فيكون﴾[4].

ثانيا: الدليل العقلي:

١- أنـه لـو لم يكـن - سبحانه وتعـالى - مـريدا لخلق جميع الممكنات التى وقعت وتقع لكان مكرها مقهورا على فعلها كلها أو بعضها فلا يكون – تعالى - متمكنا من الفعل والترك ويكون -سـبحانه- عاجزا عن دفع ما يقهره. ولو كان كذلك ما وجدت هذه الكائنات لكن عدم وجودها باطل بالمشاهدة فبطل ما أدى إلـيه وهو كونه -تعالى- مكرها مقهورا ووجب اتصافه -تعالى- بالإرادة. وهو المطلوب.

---

(١) انظر: شرح البيجورى على الجوهرة ص٧٨ .

(٢) جزء الآية [١٠٧] من سورة هود.

(٣) الآية [٦٨] من سورة القصص.

(٤) الآية [٤٠] من سورة النحل.

٢- اللّـه صـانع للعـالم بالاختـيار وكل من كان كذلك تجب له الإرادة فالله تجب له الإرادة.